

نوادير التراث
٣

أَسَارُ تَرْذِيْبِ الْفَرَارِ
زليد
لِلْحَافِظِ جَلَالِ الدِّينِ السَّيُوطِيِّ

دراسة وتحقيق
عبد الفتاح عطا

الطبعة الثانية

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

دار الاعتصام

صدر من هذه السلسلة

- ١ - أسرار التكرار في القرآن للكرمانى
 - ٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال
- دار الاعتصام دار الاعتصام

الهدى

لكن جميل من الله تعالى الى اورك
الاستاذ في اللطيفات وقلمك من
النظم في العمل والفكر .. والرفق في
البحث .. والهدى في الرأى .

فأنت فينا جميعا الأثر لا ينسى .. ونفوس
فمن وقار العلماء والذكر ..

فأنت الهدى نعمة من نعم الله ..

للى استاذى على محمد حبيب الله

وفاء لهدى .. وعرفانا بجميل ..

وسبيلك ظهور ..

الهدى هذا الكتاب

حقوق الطبع محفوظة

للمنشر والمحقق

دراسة
في الوحدة الموضوعية للقرآن
وأسرار ترتيب النزول الترتيب في الصحف

عظمة القرآن وحتد الموضوعية

قال الجن حينما سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم :
(انا سمعنا قرآنا عجبا • يهدى الى الرشء فأما به ولن نشارك بربنا احدا) •
واهتزت عقيدة الشرك فى قلب رجل من صناديد الكفر هو الوليد بن المغيرة
حينما سمع بعض آياته من الرسول فقال : « ما هو بقول البشر » • وفزع
أئمة الكفر من قريش حينما شهدوا تأثير القرآن على القلوب فقالوا لزعمائهم
(لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) • وسعى أهل النباهة
من فتيان العرب من أمثال عبد الله بن مسعود الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال : « يا رسول الله ، علمنى من هذا القرآن » • حينما استأسر
قلبه لسلطانه ، واستشرف على عتبات الاسلام •

تلك واحدة من دلائل عظمة القرآن هى : سلطانه الروحانى الخفى على
القلوب ، وولايته المطلقة على مدارك الانس والجن على السواء ، وجاذبيته
المضيئة لقلوب المهتدين والجاحدين جميعا •

وقد يكون لبعض المكتوبات البشرية سلطان على المشاعر ، وجاذبية
للنفوس ، ولكنها لم تصل فى ماضى الزمان ، ولن تصل فى مستقبله الى
أعماق الروح ، ، ولا الى مستقر الايمان واليقين ، ولا الى قمة التضحية فى
سبيلها بالمال والنفس كما وصل الرواد الأوائل للاسلام ايماننا بالقرآن ،
ويقينا بسلطانه ، واستشهادا فى سبيل دعوته ، واحتمالا لما لا يطيقه بشر
فى سبيل اعلاء كلمته •

تلك دلالة لا شك فيها من دلائل عظمة القرآن بالنسبة للمؤمنين ،
يقابلها على نفس الطريق عنف المقاومة لهذا السلطان من جانب الكفار ،
وجبروت التعذيب الذي تسلطوا به على المؤمنين فى مطلع الدعوة ، فما لبثوا
أن فجروا جديدا من ينابيع الايمان بما ابتكروا من وسائل التعذيب ، ووجدوا
شتات الدعاة الأوائل تحت راية الرسول بما نفثوا من سموم الحقد والعداء ،
فكان القرآن هو محور هذا الصراع الرهيب العجيب الذى دارت رحاه على
رمال جزيرة العرب ، والذى طاشت فى نهايته أحلام المعارضين على وفرة
المال والرجال والسلاح حينما ذلت رقابهم أمام قلة من الرجال ، وقلة من
المال ، واعواز فى السلاح يحدوها طوفان غامر من اليقين ، وايمان راسخ
بالقرآن ، وانطباع كامل بأخلاقه ، فتحطمت الى الأبد شوكة الكفر ، وسمح
الى الأبد صرح القرآن .

وثانية الدلائل على عظمة القرآن : صموده أمام دعوات الهدم على مدى
التاريخ الطويل ، وتصديه لهجمات الاتحاد الضارية فى ميدان الحرب وفى ميدان
الفكر ، فلم تزد تلك الهجمات الا انطلاقا الى آفاق جديدة من الارض ،
وانبلاجا لنوره على صدر الزمان ، وأعماقا بعيدة لجنوره فى القلوب . ولئن
ذبلت فى بعض أحقاب التاريخ همم أهل الحضارة القرآنية تحت تأثير الصدمات
المتوالية ، واستجابة المؤمنين الى أهواء النفوس ، فما كان هذا الذبول الا
غفوة أعقبها استجماع للقوة ، وروية مضيئة لحركة التاريخ كما حددها
القرآن ، فعاد الذبول نضارة ، وكان من الضعف قوة ، ومن آمال أهل
الاتحاد تمزق وخيبة وانحلال ، وكان من هذا التمزق دفع لمجتمع المؤمنين الى
ذروة التاريخ .

لقد عانت حضارة القرآن من تسلط قريش ، ومن جبروت الروم ،
ومن جدل الفرس ، ومن سلاح الصليبية ، ومن نؤم اليهودية العالمية ، وأخيرا
من يريق المذاهب السياسية والاقتصادية وأخصها الشيوعية اليهودية ، وكان
من أبناء الاسلام اعوان لهؤلاء المتآمرين حاولوا قهر الاعزة على أوهم
الشيوعية ، فأعزوا فى سبيل ذلك أهل الأهواء ، ولكن أولئك جميعا ذلوا
أمام صلابة الحق فى القرآن ، وذهلوا حينما عجز المال والسلاح والتكتل
الدولى عن النيل من ايمان أهل القرآن .

وثالثة الدلائل على عظمة القرآن بعد الصمود الذى لا يستطيعه الا
الكتاب الحكيم : أنه كتاب حضارة تندرج تحت لوائه الامم والشعوب ،
وتستسلم حضاراتها لحضارته ، فما نلث أن يحتويها الاطار الشامل للاسلام
الرحيب ، وتتخذ نفس الصفة الشرعية لحير أمة أخرجت للناس ، تامر

بالمعروف ، وتنهى عن المنكر داخل النفس وخارجها ، وداخل الأمة وبين الأمم الأخرى ، وتؤمن بالحق والعدل عن الله فيصلا وحكما بين الجميع ، فلا عنصرية ولا عصبية ، ولا استمساك بالذات ، بل هو انكار لها ، وعمل للمجموع مع الاحتفاظ بكرامة الفرد وكيانه بعيدا عن أى لون من ألوان الامتهان .

فعظمة القرآن نابعة من أنه لا يستجدى الشعوب أن يتبعوه ، ولا الحضارات أن تدوب فى حضارته ، بل يعرض أمام العالم وجهه السمع الكريم ، ويكشف عن رحابته النادرة بين دسائير الحضارة ، ويعلمن حربته الضارية على الظلم وامتهان الانسان للانسان ، وامتهان الانسان لنفسه وعقله ، ويكشف الستر البراق عن غفن النوم البشرى ، وعن الحباثل التى ينصبها أعداء العدل ، ومتلصصة الفكر ، أولئك الذين يحاربون الله ورسوله لا لشيء الا لان الايمان بهما يقف سدا هنيئا أمام أطماعهم وشهواتهم التى لا تدع قيمة الا حطمتها ، ولا مثلا أعلا الا شوهته وأذلت أهله ، والداعين اليه .

وعلى مر القرون ما زال كبار المفكرين فى العالم كله يشيدون بتلك السمة التى استعصى عليهم الجهر بها هذا الرده الطويل من الزمان .

ورابعة الدلائل على عظمة القرآن : سرعته المذهلة فى بناء الحضارات اذا أتيج له من ينفذ تعاليمه من القادة على نفسه وأهله قبل أن ينفذها بين جمهور المؤمنين . وهو الأمر الذى أهاب الله تعالى بالمؤمنين أن يحرسوا عليه ، وضمن لهم فى سبيل ذلك تمكينا سريعا ، وزحفا منصورا ، وعونا من جند الله يفوق كل قوة ، وكل جبروت ، وكل سلاح ، وصادف هذا النصح الالهى من القلوب حبا لا يقاوم للقرآن .

وتدعيما لذلك فقد كان القرآن دستورا حضاريا للعمل على مستوى الأمة كلها ، عن طريق الحفظ والدرس والتلاوة الواعية والتدبر والاقتناع والتذكر والتطبيق السلوكى الدقيق . والدليل على أن تحويل القرآن الى سلوك لم يفرض على المؤمنين بعضا السلطان ، وانما جاء عن طريق الدرس والتدبر والاقتناع بعظمة القرآن ما رواه أبو عبد الرحمن السلمى قال : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

وقال أنس بن مالك : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جده فى

أعيننا • وأوامر عبد الله بن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين •
ويضيق بنا المقام اذا استقصينا أقوال الصحابة فى هذا الصدد ، ولكن
الذى نريد أن نوضحه هنا هو أن سرعة الحضارة القرآنية فى الانتشار
والتأصل نابعة من هذا ينبوع العريق فى الاصاله ، فلا تتعثر الحضارات
الا من جهل الشعوب بالدساتير وأهدافها ، أو من قصور تلك الدساتير فى
ذاتها ، أو فى اقناع الشعوب بجدواها ، وفى كلا الحالتين تختلف الشعوب مع
السلطات ، وتتمرد على القانون ، ومن هنا لا تسرع الحضارة فى سيرها نحو
غايتها على فرض صلاحيتها ، فضلا عن النفقات الهائلة التى تتطلبها إيقاف
التيار المتمرد على السلطة ، وتعويق السلطة لذلك عن المضى الى غايتها •
أما حضارة القرآن فتختلف عن جميع الحضارات من هذه الوجهة ،
فالقرآن هو الفطرة البشرية التى لا تختلف فيها أمة ولا جنس ، فهو مقنع
لجميع الناس بجدواه وعظيم عائدته ، ودافع لهم بما يحتويه من وجوه الحكمة
الملائمة لجميع الاجناس الى الدرس والتدبر الذى لا يزيد الناس الا ايمانا
وامعانا فى استكشاف الحكم التى لا تنتهى ، ولا تضعف فى قوتها على كثرتها
الكثيرة ، ومن هنا كان العلم بدستور الحضارة الاسلامية الى جانب الاقتناع
به عاملا رئيسيا من عوامل السرعة فى البناء ، والقوة فى الأسس التى تقوم
عليها الحضارة ، وتوفير جهود السلطات الحاكمة حيث تتفرغ لارتياح آفاق
جديدة لاقامة صرح الاسلام على أرضها •

لقد أمر رب القرآن بتدبر القرآن فقال تعالى: (كتاب أنزلناه اليك مبارك
ليدبروا آياته) • ونمى على من لا يتدبرونه فقال : (أفلا يتدبرون القرآن)؟
ولا يمكن أن يكون التدبر الا مقرونا بفقه المعانى والاهداف والحكمة • ولهذا
لم يؤثر خلاف بين الصحابة على معانى القرآن الا نادرا ، ولم يتهرب المخالفون
للمشريعة من الحدود المشروعة لامثالهم ، بل تقدموا الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم طالبين اقامة الحد عليهم ، رغم محاولات ردهم عن الاعتراف
والمشروعة للتثبت من أهلية طالب الحد ، وجدديته فى طلب التطهير من
الذنب ، حيث وصل هذا التطهير الى الموت رجما بالحجارة ، وما كان ذلك
الا لأن هؤلاء قد وصلوا الى درجة من الوعى القرآنى والاسلامى لم يصل
اليها واضعو الدساتير الأرضية فضلا عن الشعوب المحكومة بها •

تلك عظمة لا تساق اليها الشعوب بالعصا ، وانما تقوم على رعايتها
الشعوب بمحض الايمان والغيرة والعلم والتطلع الى مزيد من النجاح ، الأمر
الذى استطاع به الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه بناء أعظم حضارة
عرفها التاريخ فى ربع قرن من الزمان ، لا يكفى لاصلاح مدينة واحدة تحت
لواء دستور أرضى فى أى دولة من دول العالم ، وفى جميع أحقاب التاريخ •

ولعل هذا المعنى العظيم هو الذى يفسر لنا الحوافز التى شرعها الله تعالى لحفاظ القرآن ، والتالين له فى مختلف الاوقات لا سيما قرآن الفجر المشهود ، حيث يصل الانسان فى هذا الوقت الى درجة عليا من الصفاء الذى يهبى لمن يصاحب القرآن فيه فهما لا يمكن أن يتيسر فى وقت آخر . . حتى لقد شجع النبى صلى الله عليه وسلم من يقرأ القرآن بلا فهم تذرعا الى دفعه الى درجة من الفهم فيما بعد ، وكذلك من تشق عليهم القراءة تدريبا لهم على أن يألّفوا القرآن فتسهل عليهم قراءته ، ثم فهمه وتدبره . وكان القرآن شرطا لصحة الصلاة ، وأفضل ما يتقرب به العبد الى ربه ، الى آخر ما هو مسطور فى السنة النبوية المشرقة . .

وخامسة الدلائل على عظمة القرآن : أن اجماع أهله حجة على الناس جميعا فى مختلف العصور ، ولم يمنح الله تلك الصفة على المستوى العالمى لأمة غير أمة القرآن ، وما كانت عظمة تلك الأمة على هذه الصورة العجيبة الا من عظمة دستورها : كتاب الله الحكيم .

والذى يتصل بالقرآن من دلائل حجية اجماع المسلمين على العالم قول الله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) . ولا خروج الى النور الا بالقرآن ، فاذا اجمعوا على باطل كانت نتيجة اجماعهم اما بقاء الناس فى الظلمات ، واما إعادة الناس من النور الى الظلمات ، وهو ما يشهد التاريخ بخلافه ، إذ أن أمة القرآن بقيادة رسولهم صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الأئمة جاهدوا الناس لانقاذهم من شؤم الظلام الى وضوح النور ، وما زال اجماعهم هكذا فى مجال الرأى والفكر والاستنباط .

وحينما أعطى الله تعالى أمة القرآن سلطان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان ذلك سلطانا من الله تعالى لهم أن يصيبوا الحق فيما كان معروفا أو منكرا عند الله حينما يجمعون على أحدهما أو عليهما معا أو يختلفون فلا يعدوهم الحق . وكذلك يقول الله تعالى عن أمة القرآن : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) . فالوسط : من يرتضى قوله . والشاهد : من يكون قوله حجة فى مجلس القضاء للفصل فى الخصومات ، وهو ايدان بأن الحق لا يعدوهم مجتمعين أو مختلفين .

وهذه الصفة وإن كانت لأمة القرآن فانما اكتسبوها من القرآن ، فلولا أن القرآن مهيم على جميع الكتب ورسوله شاهد على شهداء الأمم كلها ، وفيصل بين الحق الذى هو من عند الله وبين باطل تلك الأمم ، لما كان لأهله تلك الصفة ، ولا تلك العظمة المستمدة من القرآن على مستوى العالم كله فى

الدنيا ، والتي تتمدى الدنيا الى مجلس القضاء فى الآخرة حيث يشهد رسول القرآن على شهداء الامم جميعا .

وأخيرا فان اعجاز القرآن هو العظمة الذاتية التى حار العلماء والمفكرون فى الكشف عنها ، وما زالوا يكتشفون منها كل يوم جديدا ، ولا يزالون كذلك ما دام القرآن متلوا أو محفوظا فى الصدور .

وليس القول بالاعجاز فى القرآن موجها نحو المعجز عن فهمه بالقدر الذى تقوم به الشريعة كما يحلو لبعض هواة الجدل حول الدين أن يتلمسوا معنى بعيدا عن نطاق الفكر الإسلامى كهذا المعنى الذى لم يقل به أحد فيقيموا حوله سوفا لثيما من الجدل ، ويطلقوا القول بعدم اعجازه من هذه الوجهة التى لم تخطر على بال مسلم من العامة فضلا عن الخاصة ، فيظن بعض البسطاء فى نهاية تلك السوق نفى الاعجاز عن القرآن بالكلية ، نتيجة لذلك اللؤم فى الفكر ، أو لهذه الهواية البهلوانية مما يشبه ألعاب (السيرك) من الكلام يقتل به صاحبه نفسه ، ويقتل غيره ، وحسبه أن تلوك الالسنه اسمه على أى صفة وإى صورة من الصور والصفات حتى ولو كانت باللعنات المترادفات .

عظمة القرآن فى انه آية من آيات الله واضحة المعنى والهدف بالقدر الذى يحتمله البشر ، ويفهم منه القانون الإلهى ، سهل الاستلوه ، حتى ليخيل لمن مارس طريقته أنه يستطيع مثله ، فاذا حاول عجز عجزا كاملا ، واعتراه النقص والتخبط مهما أجهد عقله ونفسه ، وراضها على تلك الحكمة الإسلاموية الناصعة الواضح فى القرآن

ولهذا كان وصف الوليد بن المغيرة للقرآن واضحا فى أن نسق القرآن مغاير تماما لنسق الكلام البشرى ، فما هو الا ضرب من القول فوق قدرات البشر سماه : سحرا يؤثر .

قال الوليد لابی جهل : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، والله ان لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ، مفدق أسفله ، وانه ليعلم ولا يعلى عليه ، وانه ليحطم ما تحته .

فلما قال له أبو جهل : ان هذا القول لا يرضى به قومه ، فكر طويلا فلم يجد الا أن ينسبه الى قوة من القوى غير المنظورة ، وغير المقدورة ، فقال : (سحر يؤثر) . وبطلان نسبة القرآن الى السحر معلوم ، ولكن نسبة الوليد اياه الى تلك القوة غير المنظورة يبطن المعجز عن معارضته ، وشلل القدرة

العربية - على الأقل في ذلك العصر وفي وسط الكفار الذين يتلمسون وجها للمعارضة - عن الاتيان بمثله . فهو وان لم يعزل القرآن عن القدرة البشرية عزلا كاملا ، بل أبقي من يستطيع السحر قادرا على مثله ، فقد زلزل بهذا الرأي عموم القدرة الانسانية على مثله ، وشهادة العدو بذلك شهادة بالاعجاز اذا راعينا جانب الكفر واللدن في الخصومة في وزن هذا القول بميزان علمي دقيق .

ومن أحسن ما قيل في تحليل اعجاز القرآن ما قاله ابن عطية في مقدمة تفسيره (٢٧٨/١) : « ان الله قد أحاط بكل شيء علما ، فاذا ترتبت اللفظة من القرآن ، علم باحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعبد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن الى آخره ، والبشر يعهم الجهل والتسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك ، فبهذا جاء نظم القرآن في النفاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا يبطل قول من قال : ان العرب كان في قدرتها الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك . والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط ، ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا ، ثم ينظر فيها فيغير فيها ، وهلم جرا . وكتاب الله لو نزعته منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد . . . وقامت الحجة على العالم بالعرب ، اذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة » .

لقد كان العرب أشد الناس أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد علمهم ، فكان من المحال أن يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة من التحدى ولا يعارضوه لو استطاعوا الى ذلك السبيل .

ونقل السيوطي عن حازم في منهاج البلغاء ما يتم به كلام ابن عطية اذ قال : وجه الاعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمرارا لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بنفثهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها في العالي منه الا في الشيء اليسير المعداد ، ثم تعرض الفترات الانسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه .

وأى عظمة تعدل عظمة العجز عن معارضة نظم القرآن وأسلوبه على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان والى أن يرث الله الارض ومن عليها ، حتى أصبح الكلام في هذا الموضوع في عصرنا ضربا من صرف الناس عن عظمة التشريعات القرآنية ، ولعبة لثيمة يمارسها الاعداء من جبايرة اللؤم والحداد .

وقد فطن المرحوم الاستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي في الكتاب الأول من كتابه (الاسلام في عصر العلم) الى دلالة نص من القرآن على عظمة القرآن واعجازه الذي لن يزال ماضيا في الامم من وجهة نظر العلم . ذلك النص هو قول الله تعالى : (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وقد لفت رحمه الله النظر الى كلمات (الفطرة) و (الناس) و (لا تبديل لخلق الله) . فالفطرة هي السنن الالهية الثابتة التي تقوم عليها الخلقة في أصلها . والناس لفظ شامل لمن عاش ومن سيعيش على ظهر الارض من كل الشعوب والامم . وعدم التبديل يدحض زيف العلماء التجريبيين الذين يحلو لهم مهاجمة الاسلام وغيره من الاديان بالتعارض مع العلم ، وانما التعارض وقع في تجاربهم لا في السنن الثابتة التي لما يصلوا اليها بعد ، فظنوا القصور في أصل القوانين ، بينما القصور ما زال في عقولهم وتجاربهم .

ويقول رحمه الله : « ومن أعجب عجائب تلك الآية الكريمة وصف الاسلام - دين القرآن - بأنه نفس الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهذا شيء فوق العقل البشرى أن يتصوره ، فضلا عن أن يسبق اليه في القديم والحديث ، والانسانية كلها الى الآن لا تعقل حتى امكان تحقيقه ، فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدنون أنفسهم بالوصول يوما الى نظام ينطبق على الفطرة من جميع وجوهها ، والمسلمون في شغل بما ينبذ اليهم الغرب من الآراء والمذاهب ، غافلين عن الكنز الذي بين أيديهم ، والنور الذي فوق أبصارهم ، والنعمة الكبرى التي من الله عليهم بها في الاسلام » .

وحسب القرآن من العظمة أنه المعجزة الباقية على مدى الدهر ، حيث اندثرت معجزات الرسل السابقين جميعا بعد أداء وظيفتها في اقامة الدليل على صدق أولئك الرسل . وحسبه كذلك من العظمة أنه يتصل بالحياة ما بقيت الحياة ، فيه حياة القوب بالايمان ، وبه حياة الايمان بالجهاد ، وبه قيام الجهاد بمنهجه الامثل في تربية انسان الحضارة الامثل ، وبهذا الانسان الموصول بالقرآن تنبض الحياة بالعدل ، وبه يدبر الظلم والاحاد ، وما كانت معجزات الرسل السابقين كذلك ، فقد كانت كلها اما متصلة بحياة جسد ، أو متحدية وهم السحر ، أو حجة على قوم بعينهم مردوا على الكفر فهلكوا بعدها بوسيلة تدمير غيبية ، وما كذلك معجزة القرآن التي بقيت لتحقيق مزيدا من الاتساع في قاعدة الايمان على مدى الزمان .

وحدة الموضوع في القرآن

لا أريد أن أطيل القول في موضوع تلاحم آيات القرآن من الوجهة التي طرقها الامام السيوطي ، وطرقها في عصره الامام برهان الدين البقاعي في كتابه (نظم الدر في تناسب الآيات والصور) وهو موسوعة جيدة جدا في ستة مجلدات مخطوطة ، كبار ، وطرقها حديثا المرحوم الاستاذ سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) . وانما أريد أن أحدد القول في وحدة موضوع القرآن من حيث هو قوانين فطرية تتدرج الى قانون واحد فطري من وجهة الاجتماع البشرية ، لا يمكن بأى حال أن يتبدل ولا يتغير ، بل انه يحكم التصرفات البشرية في كل مكان ، ويخضعها لسننه وتجاريه المنظورة وغير المنظورة في ثنايا القرآن ، والتي تتنافر مع أهواء الناس ، وتتفق تماما مع الوعي العقلي الموصل بوعي البصيرة والروح . أى الوعي العقلي المنفصل عن الهوى .

أقول : ان القانون الرئيسى الذى تدور حوله مواضيع القرآن الفرعية هو : أن الانسان عبد فقير مأمور محبوس في مملكة عدوه . والله معبود غنى مانح للحرية من سجن الدنيا الى حقيقة الحرية في جواره الأعلى . ولا تجد تشريعا في القرآن وفي أى باب من أبواب الفقه الاسلامي الا وهو متصل بهذا القانون الرئيسى ، بحيث تتضافر التشريعات كلها لتحقيق هذا الاصل وتحويله الى عقيدة شاملة هي (لا اله الا الله محمد رسول الله) .

ولقد جاء القرآن الكريم بهذا الاصل الفطري مؤيدا بنصوصه فروعه الاربعة . فنحن نراه يؤكد عبودية الانسان وغيره من الكائنات في نصوصه أشملها قوله تعالى : (ان كل من في السموات والأرض الا أتى الرحمن عبدا) ويؤكد فقر العباد بقوله : (والله الغنى وأنتم الفقراء) . وأكد أن الانسان خاضع للأمر وليس بأمر ولا حاكم بقوله : (ليس لك من الأمر شيء) . (وما تشاءون الا أن يشاء الله) . الى آخر ما ورد في القرآن من الأوامر الموجهة الى الانسان على وجه الالتزام . وأكد حبس الانسان في مملكة عدوه بقوله تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) . فبين أن الدنيا للذين لا نصيب لهم في الآخرة ، وهم أعداؤنا . وأيد هذا المعنى الذى يكون شطرا كبيرا في العقيدة بقوله : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسرا عليها يتكئون . وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) .

وآيات الله في النفس اذا تأملها الانسان مجردا عن الكتب والرسالات السماوية تبينت له تلك القوانين الفطرية ، وتأكد له أن القرآن لم ينزل الا بهذه الفطرة التي هي الحلقة الالهية بقوانينها العلمية الثابتة التي يواجهها انسان العصر فاغرا فاه من الدهشة متصورا أنه على ضدها في هذه الحياة ، لكثرة ما اعتراه من النسيان ، وصلابة ما غلف قلبه من رين الغفلة ، حتى ظن الباطل حقا والحق باطلا الا من عصم الله ، وقليل ما هم .

فالاجماع قد انعقد في جميع الافهام على أن العبد : اسم خاص للملوك من جنس العقلاء ، والملوك : اسم لعائل قهره غيره فاستولى عليه استيلاء السيد على العبد ، سواء أكان القاهر له انسانا مثله ، أو شهوة من شهواته ، أم طاغوتا من الطواغيت ، أم شيطانا من الشياطين ، أم هو قوة خفية لا يستطيع أن يميزها ، ولا يتبين لها وجهها ولا جهة . . قاهرة عليا فوق كل القوى .

وتأمل الانسان في نفسه دون تقييد بكتاب ولا رسول يؤكد له في أصل الفطرة أنه عاقل مقهور بالتكوين والانشاء من العدم ، واذا كان مقهورا بأصل الفطرة على هذه الصورة فقد انعدمت في فطرته المشيئة ، لأن المشيئة عبارة عن نهاية المالكية ، والانسان قد فطر على ضدها من المملوكية التي أوضحناها ، والدليل على فقدان الانسان للمشيئة من واقع سلوكه : أنه يشاء الكثير من الخير ، ولا يصيب الا المقذور له ، والمقسوم منذ الازل السحيق .

واذا تحققت العبودية في فطرة الانسان ، وتحقق عدم أهليته للملكية كان فقيرا بفطرته ، والفقر يقتضي الحجر وعدم التصرف الا بإذن وسلطان من المالك الحق .

واذا كان الانسان في أصل الفطرة على ما وصفنا من العبودية والفقر يعيش على تلك التبسيطة الهائلة من الارض ، ولا يستطيع النفوذ من أقطارها ، كان مقامه عليها على تلك الصورة بحكم الحبس للمحنة والابتلاء ، ولا يتصورها مملكة الا من عجز عن ادراك الفطرة ، واتخذ الهه هواه ، وادعى الحرية ، وعلا في الارض علو الملوك على مدرجة الضلال .

والبلاء الذي يمتحن به الانسان هو اختلاف بني جنسه حول تلك الحقائق الفطرية اختلافا هائلا ، ومن وجهات مختلفة . فاختلف الناس حول الادعان لتلك الحقائق ، أو ادعاء ضدها ، من الحرية ، والغنى ، والحاكمة ، والسيادة ، ثم اختلفوا حول الحق حينما اتفق بعضهم على أن عبودية الانسان جبلة فطرية في أصل خلقته ، ثم اختلفوا طرائق وشواكل حول انقياسات

كلها ، لا سيما البعث الذى شكل الخلاف حوله مذهبا دهريا يأتى على حكمة الفطرة من أولها الى آخرها . فكسان بعث الرسل وانزال الكتب ضرورة لا محيص عنها ، لاقامة الحجّة ، وهداية الناس ، وحمايتهم من عواقب الخلاف حول الفطرة ، وان كان الخلاف فى أصله هو الآخر فطرة وسنة من سنن الله فى الخلق (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) . فان الكتب والرسالات كانت لقمع الجنوح النفسى تحت تأثير الخلاف الى فوضى مدمرة لا تبقى ولا تذر .

كان من أمهات المسائل التى على القرآن بفصل القول فيها : مسألة العبودية لله ، ومسألة البعث للجزاء والكشف عن الحقيقة العظمى التى اختلف حولها الانسان فى عالم الجسد المادى بما له من مقتضيات الخلاف واللدن فى الخصومة ، وتلك الحقيقة العظمى هى الوجود الالهى ، واذعان كل الكائنات لسلطانه طوعا أو كرها ، ولذلك ارتبط اثبات البعث باثبات الوجود الالهى ، واثبات الدلائل على شمول علمه وقدرته ، وارتبط كل ذلك بأصل الفطرة على الوجه الذى بيناه فى هذه المجالة ، وكان من تلك المسائل شطر كبير من القرآن ، تبعا لجهل أكثر الناس بها ، ونسيان فطرتهم وهم يحاولون علمها ، وتستندهم فى انكارها أو الغفلة عنها (واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بل وعدة عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعنون . ليعين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . انما قولنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) .

فلما كان الخلاف مركزا فى الفطرة ، لم يكن هناك سبيل الى ادراك حقيقة البعث المؤكدة للحقيقة الالهية العظمى الا حين يرتفع الخلاف بنقل الحياة الى صورة أخرى ذات فطرة لا خلاف فيها ، فيتحقق وجود حالة من الحياة مغايرة لتلك الحياة التى يحيها الانسان فى الدنيا ينكشف فيها الغطاء ، ويحسد البصر ، يرى ما لم يكن يراه من قبل (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) . فلا خلاف ولا تطاحن حول الحقائق .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نستقصى منهج القرآن فى اثبات هذا الشطر من فطرة الانسان ، ولكننا نشير الى قسم آخر من أقسام تلك الفطرة ، هو الحرية الانسانية التى ترتبط هى الاخرى بموضوع البعث ارتباطا وثيقا بحيث تشكل معصيه ومع العبودية والفقر الى الله موضوعا واحدا ، يتصل بموضوعات أخرى فرعية هى مقومات أو شواهد على صدق تلك الفطرة الالهية الحكيمه . وتستغرق شطرا كبيرا من القرآن .

لا حرية مطلقة للانسان في هذه الدنيا . هكذا تنطق شواهد الفطرة التي جبل الله عليها الانسان ، وقامت عليها الشواهد في شريعته مما يمارسه نفس ذلك الانسان الذي يدعى لنفسه الحرية والسيادة والغنى وهما وسرايا لا حقيقة له في الذات ولا في الصفات . كما قرر القرآن .

والنموذج الواضح الذي يمكن الوصول من خلاله الى هذه النتيجة الفطرية هو : الغنى الذي ساد الناس بزعمه من جبايرة المال وملوك الارض ، حتى ملك العبيد ، وخضعت له الرقاب ، وجمع الجنود ، واستولى على الارض ، فما له من منازع في أمر ، ولا معقب في رأي ، مطاع على عزة وامتناع في أنظار العامة من غير المستبصرين الباحثين عن الحقيقة في أصل الفطرة .

ويقول الامام أبو زيد الدبوسي ردا على تلك الدعوى العريضة : ان هذا المدعى للحرية والملك ما استقر سلطانه ، وعلا مكانه بفطرته ، وانما بجنوده ، وبأس عبيده ، لا يستغنى عنهم ساعة لاستدامة ما هو فيه ، فهو يطلبهم بهوهم ، وينيلهم مناهم ، صدقا برغبته فيهم ، والناس يطيعونه رياء خوفا منهم ، أو طمعا فيما في يده ، وهو يطيع هوى من دونه ، وهم يطيعون من فوقهم ، وطاعته لهوى الناس ضرورية ، وطاعة الناس له ليست ضرورية ، لبقاء منزلتهم في أنهم عبيد فقراء مأمورون بلا وال ، غير أن طاعة الناس له بأجسامهم ، وطاعته لأهوائهم بقلبه فاستترت وما ظهرت الا لأهل البصائر .

ويمضي الامام الدبوسي في بيان العجيب الى أن يقول مخاطبا هذا النوع ممن يدعون الحرية والغنى : فعميت وجلست على سرير العبودية للعبيد ، وكان اثنامك للجنود ، وأحاطت بقلبك المكاره والآفات ، وطننت أنك ملك ، هيهات . ما أنت الا مأمور حشمك ، والرعية مأمور ملكهم ، غير أن النفس لبست عليك مقام الائتمار بمسارعتك الى الفعل قبل الأمر .

ويمضي الامام الدبوسي في بيانه العجيب الى أن يقول مخاطبا هذا النوع من الناس فيقول : ان تصرفك في أموالك كلها متردد بين جائز مأمور به ، وفاسد منهى عنه ، وما هكذا علامة الملك والقهر ، لكنه علامة الاذن على الفقر . غير أن الله تعالى خلقك للابتلاء مدة بقائك ، وقرن بقاءك بفنائك ، وخلق مما في الارض منفعة لك الى وقت انقضائك ، فقسم لكل عبد نصيبا مفرزا ، كيلا يتغالبا فيتفانوا ، وجعل عليهم من أصلحهم قيما وهو السلطان ، فهم يتمتعون بالانصباء من يد القيم من أحوال طفولتهم وصغرهم ، فاذا عقلوا سلمت اليهم الانصباء لحق الاذن في التجارة دون اثبات الملك ، فاذا بلغوا وكملت الحالة ، ضربت عليهم الضرائب للمولى ، وخوطنوا بأدائها مدة

الحياة ليعتقوا اذا أدوا ، وسلمت اليهم للحال الانصياء لحق الاذن تسليم يد ،
ليتصور الاداء بحكم تباين الايدي ، وان لم يكن فى الحقيقة ملكا للمؤدى ،
حتى لم يملكوا من أموالهم الا بمقدار ما فك الله الحجر عنهم بالعقد .

وهنا يتصل هذا الموضوع بموضوع الرق فى القرآن والشرعة بعد ما
انحسم القول فى مشكلة الملك والحرية ، والنصوص القرآنية المتعارضة فى
الظاهر ، من حيث يثبت الملك فى بعض النصوص للانسان ، ويرجع الملك
كله لله وينتفى عن الانسان فى النصوص الأخرى ، ثم يتصل الموضوع
الواحد للقرآن بالتشريعات المالية وفروعها تحقيقا للملك الالهى والقدر المتاح
للعباد بالتصرف ، ثم بموضوع البقاء الانسانى بالتكاثر بعد ما بقى المال ،
وما يتبع ذلك من أبواب التشريع ، ثم بموضوع المجتمعات الانسانية
وحضاراتها التى لا تزدهر الا تحت الامر الالهى ، ولا تندثر الا تحت التمرد
على تلك الأوامر ، وبموضوع القصص القرآنى وتوجيه النظر نحوه فى حركة
التاريخ تحقيقا لهذا الأصل الفطرى الذى تدرج حتى وصل الى قاعدة أوسع
يحتمل فيها النسيان ، ولهذا شرعت العبادات والذكر لدوام التذكر .

ولا يخلو موضوع من موضوعات التشريع من دليل واضح على تلك
الفطرة الثابتة . وخير ما يمكن أن ندرك من خلاله موضوع الحرية الانسانية
هو موضوع الرق وما يتصل به من تشريعات . اذ أن الرق والعبودية لما كانا
من فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ، وأن الملكية للانسان فى الدنيا
ما هي الا ابتلاء ينال الانسان من خلالها ومن خلال الأوامر المتصلة بها حقيقة
الحرية ، فقد شرع الله من التشريعات السلوكية فى هذا الصدد ما تتضح به
تلك الفطرة لكل ذى عينين .

يملك الرجل أخاه ملك يمين بسبب مشروع هو أن يكون أو أحد
أصوله ممن تمردوا على دعوة العبودية لله بالسلاح فأسروا فى الحرب الدينية،
ولسكن رحمة الله اقتضت أن يشرع له وجه من وجوه الحرية هو (المسكاتية)
والسكاتية باب واسع فى الفقه الإسلامى ، يشرى العبد حريته من سيده
مسال مطلوب ، ولما كان العبد لا يملك ، فقد ندب السيد إلى أن يأذن له فى
العمل بجزء من المال احسانا ، ويتصرف العبد بقدر ما انفك عنه الحجر ، كأنه
مالك وليس الا عبدا ، فاذا أدى عتق ، واذا عجز بقى عبدا ومن هذه القضية
التي يمارسها الانسان بأمر الله يمكن الفصل فى قضية الحرية الكبرى على
المستوى الغيبى ، بعد دراستها على المستوى المشهود .

فالحرية الممنوحة من الله تعالى لعباده الذين أدوا ما وجب عليهم فى دار
الابتلاء تشمل الذات فى الدنيا والصفات فى الآخرة جميعا ، ويشهد لذلك

قوله تعالى عن هؤلاء الاحرار في دار النعيم : (لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) . فما يريد هؤلاء الاحرار يتحقق بمجرد المشيئة ، وتحقق المراد بمجرد المشيئة وإن كان حقا لله فقد أكرم الله به عبده المطيع بتكوين ما يشاؤه .

فاذا كانت الحرية في الدنيا هي خلاص حق الحرفي نفسه وماله ، فما لأحد على الفائز بالجنة حق في شيء من أحواله ، فيكون عبدا في ذاته من حيث التكوين ، عتيقا في أفعاله من حيث الانعام والتكريم . وهكذا يكون مثل ما في التشريع ، وصلا بين حياتين يدرك المستبصر من خلالهما كسل أسرار الفطرة التي لم يخرج عنها القرآن في أى موضوع فرعى من مواضعها . ومن هذه النافذة يمكن أن تتصل موضوعات القرآن في وحدة متماسكة لا خلل فيها .

وجانب آخر متلاحم مع هذا الأصل الفطري الذي دار حديثنا حوله ، ودارت حوله الكثير من آيات القرآن الكريم هو : العدل باعتباره الفطرة التي بنى الله تعالى عليه هذا الكون المنظور وغير المنظور ، وردنا من خلال تلك الفطرة الى موضوع المعبود الحق الذي تقوم على أساسه الحضارة القرآنية ، والدعوة العالمية الى الاسلام ونجاحها اليقيني من حيث تعثرت خطا الدعوات في عصرنا الحاضر حينما آخلوا بتلك الفطرة .

وأصل هذا الجانب الرئيسي : أن الله عزت قدرته علق بقاء الأنفس بالذل ، وعلق بقاء الجنس بازدواج الذكر بالأنثى ، فانت ترى أن اشتباب البقاء والتكاثر هي شهوات الطبيعة التي فطر الله الناس عليها ، لتكون تلك الشهوات سائقة الى أسباب البقاء ، ثم أعلن سبحانه أنه ما خلقهم للاستغراق في تلك الشهوات ، بل ليوحدوه ويعبدوه بأمره على خلاف الطبع ، ولهذا نرى القرآن يدعو الى العمران ويشجع النكاح ، وينهى على من يحرم الطيبات من الرزق ، وفي الوقت نفسه يمقت الترف والاغراق ، ويدعو الى ايثار الآخرة على الأولى ، وعلق ملك الآخرة بالتوحيد والهدى ، في مقابلة تعليق الحاضرة على الشهوات والهوى . وهنا كان الابتلاء الذي لا ينجو الانسان منه الا بالعدل واقامة الموازين الدقيقة في شئون المال والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء .

عدل الانسان مع نفسه ، فلا ينساق الى الترف في الجسد والعقل ، وعدل الانسان في علاقته بربه ، فلا تطفئ عليها الدنيا بشهواتها ، ولا تطفئ العبادة على العمران ، وعدل الانسان في علاقته مع غيره من بنى جنسه ، ابقاء على الاخوة الضرورية لنجاح الامة في شريعة الجهاد في سبيل الله ، وقد

أفاض القرآن في هذه المواضع ، وربطها بما أشرنا اليه من مواضيع في شطر كبير جدا من آياته .

وغاية العدل : أن يصل الانسان الى أن كل سلطان عليه غير سلطان الله فهو شرك وضلال ، وكل عبودية لسواه ذل ، وعلى الانسان أن يوفق بين ارتباط مصالحه الدنيوية بغيره من الناس وبين العبودية لله ، فلا يمنح الانسان أكثر من حقه في أنه عبد مسخر للعمل وتبادل المنافع مع غيره ، ولا يتحدث عن الحائق الاعلى حديثه عن العبيد ، ولا يخلط بين الفاني ومأنح الحياة .

وعلى هذا النهج تخلص عقيدة المؤمن من الشرك الخفي والجلي ، وعلى العكس اذا اختلت موازين العدل بين الانسان ونفسه ، فمال الى الشهوات ، فانه حينئذ يصبح انسانا مختلا في توازنه بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، ويضعف أو ينعدم شعوره بسلطان الله وقهره ما دام مقهورا للشهوة ، مدفوعا بسلطان المال ، ومن هذا تكون القوضى ، ويتحطم بناء المجتمع باختلال نظام الأسرة .

فالانسان لا يصبح سويا صالحا لممارسة شعائر الايمان الحق كما يريد الله تعالى الا اذا عدل بين مطالب جسده ، ومطالب عقله ، ومطالب روحه . فمطالب الجسد : ابقاؤه حيا متكاثرا دون سرف ولا تقتير ، ومطالب العقل : النظر في العلوم والمعارف التي تؤدي الى رقي الانسان وتساهمه عن وحل الانحراف ، ومطالب الروح : وصلها عن طريق العبودية والعبادة بمصدر الوجود الحق ، واسناد التوفيق اليه ، والبراءة من الحول والقوة ، والفرار اليه في كل المهمات .

وظلم الانسان لنفسه في جانب من الجوانب الثلاثة ينتهي به الى مرتبة الانعام حينما يعبد هواه ، والى الشرك حينما يصبح الظلم عظيما بالغفلة عن الله ، وعن مراقبته ، ومراقبة انعامه ، ونسبة شيء من ذلك الى العبيد بالنسبة أو بالوجدان أو بالعمل .

ولقد بث الله تعالى تعليمه للمؤمنين وحدة الموضوع القرآني عن طريق العدل في المطالب البشرية النظرية في مواضع كثيرة من أظهارها أوائل سورة الروم .

فقد افتتحها الله تعالى بتذكير المؤمنين بأن النصر من عند الله ولكنهم لا يعلمون ، لانهم يغفلون عن مطالب الروح فلا يعلمون الا ظاهرا من الدنيا . ثم أرشد الى منهاج الوفاء بمطالب العقل والروح ، ووجه الانظار الى التفكير في أنفسهم وفي خلق السموات والأرض بالحق لعاقبة الجراء ، والى دراسة تواريخ

الأقدمين من جبابرة الكفر ، وكيف انتهى بهم الحال الى ذل مقيم . ثم وجه
الأنظار الى استمرار خط الحياة بعد الموت ، وبسط القول فى الثواب
والعقاب ، وأدمم بمادة التفكير الموصلة الى حقيقة الايمان والتوحيد ، وكيف
أن الملك الحق يفعل ما يريد .

ثم انتهى القول الكريم الى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهه
نحو عناصر الفطرة فى هذا البيان الحكيم فقال تعالى قولاً فصلاً فيه كل العلم
لأهل البصائر والذكرى :

(فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل
لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه
واقموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا
شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون - ٣٠ - ٣٢) .

وهذا هو الموضوع الواحد الذى شرحه القرآن ، وعرضه على مختلف
المناهج حتى يستحق وصف الله تعالى له بأنه كتاب البشرية كلها ، جاء به
رسول الله الى الناس كافة فى كل العصور والأجيال .

فسبحان الله الذى أقام بالعدل والقسط والميزان هذا الكون الهائل ،
وأنطق بالعدل حركات الكواكب ، ودرجات الحرارة والبرودة ، وموج المحيط ،
وهدير السحاب ، وسوق الماء ، واضطراب الارض بالنبات ، وكل سر الله فى
خلقه منظور ومحسوس ومغيب عن مدارك الانسان ، وربط بين العدل
والفطرة ، وربط بين الفطرة والقرآن ، وأنزله كتاباً واحداً الموضوع . كتاب
الهدى والتوحيد والفطرة .

ترتيب القرآن

ترتيب النزول :

يختلف ترتيب القرآن في النزول عن ترتيبه في المصحف اختلافا كبيرا ومنشأ هذا الاختلاف هو اختلاف الهدف المقصود من كلا الترتيبين .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم نزل منجما على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين سنة ، أو خمس وعشرين سنة ، على حسب الخلاف في إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة .

والذي يلقي الضوء على حكمة انزاله مفرقا في هذه المدة الطويلة ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت : « إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر . لقالوا : لا ندع الخمر أبدا . ولو نزل : لا تزنا . لقالوا : لا ندع الزنا أبدا . وإذا تدبرنا المناسخ والمنسوخ من مكي القرآن تبين لنا مدى علم عائشة رضي الله عنها بحكمة ترتيب النزول .

فالمقصود الرئيسي هو مراعاة حاجة الدعوة إلى الدين الجديد من الوجهة التربوية الإلهية الخالصة ، والتدرج بالناس شيئا فشيئا حتى يتم المراد من اكمال الدين ، وتام النعمة ، دون أن تكون هناك عوائق نفسية تعوق الإنسان السنوي عن متابعة التنزيل ، وتدبر معانيه ، والاقتناع بمراميها ، والعمل بما تضمنه من أحكام .

وآية ذلك أن الفترة المكية على طولها لم تكن التعاليم القرآنية فيها متجهة إلا إلى بناء العقيدة وترسيخها في أعماق الوجدان ، ولم يشرع من العبادات فيها إلا الصلاة ، باعتبارها تجديدا دائما ومتكررا لقوة العقيدة وفاعليتها ، وما ذاك إلا لأن العقيدة هي قوة الدفع للإنسان المؤمن نحو الطاعة المطلقة لله في الأمر والنهي ، وآية صدق هذا المنهج التربوي : ما أنجزه الرعيل الأول في المدينة من أعمال عظيمة ، يعجز عنها إنسان ذو عقيدة لا تتسم بالأصالة والرسوخ والعمق واليقين .

فالقرآن على منهج النزول هو منهج دعوة لتأسيس دين بين قوم لا يدينون بالحق ، ومنهج تربية لأمة مختارة ومصطفاة لنشر هذا الدين

بمختلف الوسائل المشروعة للدعوة ، ومنها الجهاد بالسيف الذى نسخ كل الوسائل السابقة ، ومنها الصبر على ما يصيب الدعاة ، والدعوة باللين والحسنى .

ومن أسباب تفريق القرآن فى النزول ما ذكره الله تعالى ردا على الكفار (وقال الدين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) . أى : كما أنزلت الكتب على من قبله من الرسل . فأجابهم الله تعالى بقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم : (كذلك أنشئت به فؤادك) .

وتشبيبت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم فسرره أبو شامة بقوله : ان الوحى اذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى بالقلب ، وأشد عناية بالمرسل اليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك اليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان ، لكثرة لقائه جبريل .

ولا يخرج هذا التعليل عن المصلحة العنيفة للدعوة الناشئة ، ولكن فى شخصى الداعى الأعظم ، بما يتناسب مع المهمة العظمى التى أمر أن يصدع بها ، ويجهاد الأمم من أجل ارساء قواعدها . وفى قوة الداعى قوة لاتباعه ما فى ذلك جدال .

كما أن هذا المنهج النزولى كذلك فيه تشبيبت لأفئدة المؤمنين ، بإثارة تطلعاتهم الى الوحى ، وإلى ما ينزل به حلا لمشكلاتهم ، وفصلا فى قضاياهم ، حيث كان يتوقف فيها الرسول كثيرا حتى ينزل فيها قرآن ، وفى ربط الوجدان والعقل بالوحى على هذه الصورة مذاكرة نفسية للعقيدة أبلغ من كل كلام فى موازين التربية التعليمية فى أسمى قيمتها ونجاحها .

وقالوا كذلك أن تشبيبت فؤاده صلى الله عليه وسلم بانزال القرآن مفترقا : أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق عليه ليثبت عنده حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان قارئاً كاتباً .

وقالوا : ان القرآن فيه الناسخ والمنسوخ ، ولا يتأتى ذلك الا فيما أنزل مفترقا .

وقالوا : ان منه ما كان جوابا لسؤال ، وما كان انكارا على قول أو فعل ، فنزله جبريل بجواب كلام العباد وأفعالهم ، وقد فسر ابن عباس بهذا المعنى قوله تعالى : (ولا يأتونك بمثل الا جئتاك بحق وأحسن تأويلا) .

ولا تخرج هذه الأقوال الثلاثة كذلك عن مصلحة الدعوة في حفظ النصوص القرآنية التي تعتبر دستور الدين الجديد ، وفي الاستجابة للمتطلبات الواقعية لتربية خير أمة أخرجت للناس ، اقرارا لما يتفق مع قوانين الفطرة الثابتة ، وتقويما لما انحرف عنها بتأثير الهوى وتقاليده الجماعة الموروثة التي لا تخضع للحق من حيث هو حق .

ومن أهداف نزول القرآن مفرقا : تجدد الحوافز التي قررها الله تعالى للدعاة في كل العصور والاقطار ، وللدعاة الأوائل بصفة خاصة ، اذ كان هناك حوافز للدعاة لا يظهر أثرها الا في الدار الآخرة ، كالصبر على الاذى ، وتوفية الصابرين أجرهم بغير حساب ، وجزاء الشهداء عند الله ، وما شابه ذلك من الحوافز . وكان هناك حوافز تبشر المؤمنين الدعاة على قتلهم وضعفهم في المال والسلاح بالانقيصار واذلال جيروت العدو ، حتى يكون ذلك ادعى الى صلاحة العزائم ، والاصرار في المضي على الطريق ، لا سيما وأن تلك الحوافز كلها قد تحققت من الوجهة القرآنية ، فانعكست في السنة النبوية بجميعها وتوسيعا لمفهومها ، بالبشريات التي زفها الرسول صلى الله عليه وسلم لاتباعه بالانتصار على مملكة فارس ، وبدوام النصر والفتح ما عاشت شريعة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

كان الرسول وأصحابه يلوذون بالصبر على الأهوال في مكة ، فانزل الله تعالى : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) . قال عمر بن الخطاب : فقلت : أى جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر ، وانهزم المشركون نظرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم مصلنا بالسيف ويقول : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) . فكانت ليوم بدر .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد) . فهذه السورة مكية ، وقد نزلت والمسلمون في كرب الاضطهاد والحصار الاقتصادي الرهيب تبشرهم بالفتح في صورة احلال البلد الحرام لقائد الدعوة صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر أثر هذا الفتح وذلك الحل في قوله صلى الله عليه وسلم عن فكة : « أحلت لي ساعة من نهار » .

بل لقد كان هناك حافز أشمل من كل تلك الحوافز ، واشد قوة في رفع الهمم ودفعها الى اقتحام أشق العقبات ، وذلك في آية النحل التي تبشر تلك القلة المستضعفة في مكة بملك عظيم ، وعلاقات دولية واسعة ، شرع لهم عند قيامه الا ينقضوا العهد ايثار للمال أو القوة في قوله تعالى : (ولا تكونوا كآلتي نقصت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخلون أيمانكم دخلا بينكم ان تكون أمة هي اربى من أمة) .

ومع ذلك فلم تفقد هذه الآية فاعليتها في مكة ، بل كان التدريب على تحقيقها ماضيا في تنفيذها عند بناء التجمعات الاولى ضد الكفر ، على ضيق نطاقها ، ولكنه وسيلة تعليمية ناجحة كل النجاح على أى حال ، عمقتها السنة في التبشير بالفرج والنصر .

لم يكن من سواء السبيل اذن أن ينزل القرآن جملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يؤسس دعوة الرسالة الخاتمة ، ويقيم صرح الدين الشامل للناس جميعا ، ويربى جيلا فريدا من فقهاء القرآن ، وحفاظ الشريعة ، وشيوخ الدعوة ، وفرسان الجهاد ، والمعلمين الاثبات لكافة الأجيال .

وكان من عيون الحكمة أن ينزل القرآن هكذا منجما يجمع بين الحوافز وقوى الدفع الأخرى ، كما يتيح الفرصة الكاملة للدعاة الأوائل أن يستوعبوا القرآن حفظا ودرسا وسلوكا ، وتربية للضمائر والقوى الوجدانية الأخرى اللازمة لنجاح خير أمة أخرجت للناس .

وفي انزاله منجما كذلك دليل لا يرقى اليه الشك على أن القرآن كلام الله ، وليس من كلام البشر . وذلك : أن السورة كانت تنزل بمكة الا آيات منها ، كسورة الأنعام ، قال ابن عباس : نزلت بمكة ، الا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة : (هذان خصمان ٠٠٠٠) الآيات الثلاث . وسورة السجدة أيضا نزلت بمكة الا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة هي : (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ٠٠٠) الآيات الثلاث . وسورة الزمر نزلت بمكة الا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة في وحشى قاتل حمزة : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ٠٠٠) الآيات الثلاث .

وجه دلالة هذا التفريق في النزول على أن القرآن كلام الله وليس كلام بشر على الإطلاق : أن عقلا بشريا مهما أوتى من القوة والحفظ والاحكام لا يستطيع أن يذكر موضع فقرة من كلام سابق مضى عليه سنوات طويلة ، فيضعها في مكانها ، بحيث تلتحم مع سابقاتها ولاحقاتها فى اللفظ والمعنى والسياق ، ولو أن عقلا اتقن ذلك فى حالة واحدة ، فلن يستطيع أن يحكمه فى حالات كثيرة وفى سور كثيرة بحيث لا تشذ حالة واحدة عن قاعدة الاحكام المشهودة فى كتاب الله الحكيم .

لقد حدثت تلك التجزئة فى النزول باستثناء آية وآيات من سورة لتنزل بعد نزول أجزاء تلك السورة بسنين طويلة — حدث ذلك فى سورة البقرة ، والأنعام ، والاعراف ، والأنفال ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل ، والاسراء ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ،

والحج ، والمؤمنون ، والفرقان ، وتسع وعشرين سورة أخرى ، ومع ذلك فقد وضعت الآيات التي تأخر نزولها من تلك السور في أماكنها ، متلاحمة تمام التلاحم مع سوابقها ولواحقها ، فلا تنافر بينها في المعنى ولا في جرس الكلام ، مما يحقق ويؤكد ما جاء في السنة مجمعا على صحته من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يضع تلك الآيات وغيرها من آيات السورة التي كانت تنزل نجوما متتابعة في أماكنها بتوقيف من الوحي ، إذ كان يقول صلى الله عليه وسلم لكتاب الوحي : ضعوا هذه الآية أو الآيات بين آية كذا وكذا من سورة كذا .

ولنأخذ مثلا واحدا من سورة الزمر للدلالة على صحة هذا القول . فهذه السورة نزلت بمكة الا قوله تعالى : (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم) الى (من قبل ان ياتيكم العذاب بغته وانتم لا تشعرون) . فانها نزلت بالمدينة ووضعت في مكانها فتلاحمت مع الآيات تلاحما عجيبا لا يكون أبدا الا عن توقيف من الوحي وصار وضع الآيات بعد ذلك على الوجه التالي :

(او لم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم . وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان ياتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم من قبل ان ياتيكم العذاب بغته وانتم لا تشعرون . ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين) .

فنحن نرى ان بسط الرزق والتضييق فيه مظنة الاسراف على النفس ، ففي حالة البسط بالترف ، وارتكاب الموبقات ، وفي حالة الضيق بالعُدوان للحصول على المال ، فاقتضت الرحمة الالهية فتح باب التوبة للمسرفين وتحذيرهم من التسويف بها خشية حلول العذاب المفاجيء ، فيندم المذنب لتفريطه وسخريته بالأمر الالهي .

فهل ترى تلاحما أبدع من هذا التلاحم ؟ ولكنه نبي ورسول ما ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم .

بل انك لا تعدم التلاحم بين الآيات دون أن توضع تلك الآيات الثلاث بالمدينتين في مكانها . فبسط الرزق واقتاره داعيان الى الندم والحسرة حينما ينحرف الانسان بدافع منهما أو من أحدهما عن الصراط السوي ، ولهذا عقب الله قوله في بسط الرزق واقتاره بقوله : (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) . وذلك شاهد عظيم لعظمة الترتيب القرآني على أي وجه ، وتفسير

لقول عائشة رضي الله عنها لأحد المسلمين : « لا يضررك أية آية قرأت قبل » ،
وتفسير لقرار النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حينما سمعه يقرأ من هذه
السورة وهذه السورة بلا ترتيب . ولكن الترتيب على وجهيه النزول
والمصحف أحكم وأبلغ وأدخل في باب الإعجاز لدى بصيرة واعية .

ومن عجيب ما قاله سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ونقله عنه
الامام السيوطي في الاتقان : ان ربط آيات القرآن على ترتيب نزولها
تكلف لا يليق . اذ أنه يشترط في حسن الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط
أوله بآخره ، فان وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط
ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه الا بربط ركيك يصاب عن مثله حسن
الحديث فضلا عن أحسنه ، فان القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في
أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه
ببعض .

وقد رد الشيخ ولي الدين الملوي عن هذا الزعم بقوله : قدومهم من قال :
لا يطلب الآية الكريمة مناسبة لانها على حسب الوقائع المفرقة . وفصل
الخطاب : أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا .

ونقول : ان استعراض آيات القرآن حسب ترتيب نزولها هو عين
الحكمة ، كما قلنا آنفا ، ونزيد هنا أن نعرض نموذجا واحدا يقيس عليه
الباحث عن حكمة الترتيب وأسراره في ترتيب النزول ، وذلك من الآيات
الأولى في النزول .

فأول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة (العلق)
والمجموعة الأولى من آياتها التي أنزلت عليه أولا هي من أولها الى قوله تعالى :
(علم الانسان ما لم يعلم) . ولما كانت هذه السورة مكية ، وقد تأخر نزول
باقيها عن نزول سورة المدثر فانا سنكتفي بالآيات الأولى منها ، ثم ننظر
حكمة ترتيبها مع ثمانية السور نزولا وهي سورة المدثر ، ومع ثلثة السور
نزولا وهي سورة (القلم) التي نزلت بمكة الا قوله تعالى : (انا بلوناهم)
الى (يعلمون - ١٧ - ٢٣) وقوله تعالى : (فاصبر لحكم ربك) الى (الصالحين
- ٤٨ - ٥٠) ومع رابعة السور نزولا وهي سورة (المزمل) المكية النزول ،
بما عدا قوله تعالى : (واصبر على ما يقولون) الى (ومهلهم قليلا - ١٠ - ١١) .

فلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعده الله تعالى لأعظم رسالة
من حيث عمومها وشمولها ، وما شرع لها من وسائل الدعوة ، ومنها الجهاد
بالسيف والعلم ، وما قامت عليه من أساس التوحيد في العقيدة ، فقد

اقتضى هذا التكليف الهائل علما ومعرفة من معين آخر غير المعين الذى يتلقى عنه الناس علومهم ومعارفهم ، هو المعين الالهى الغيبى الذى يفيض على من أسلم وجهه لله ، فيقوم من شطط العقل ، ويحد من شطط الوجدان ، ويصحح ما فى قضية الايمان بالغيب من انحرافات سيطرت على عالم الشرق الأقصى ، أى : هو المعين الذى يجب أن تقاس به معارف الناس ، ولا يصح أن يقاس هو بمعارف الناس ، ويجب أن تدور حوله الأفكار لتلمس فيه الحق ، ولا يجوز أن يدور هو حول أفكار الناس ليحقق ظنون العقل ، وأوهام الهوى .

لقد أمر الله رسوله ، وكلفه أن يعلم الناس أن الله هو مصدر العلم ، والموفق الى صحيح المعرفة ، فهو خالق الانسان ، ومعلمه ما يخطه بقلمه ، وما يعلمه بقلمه ، مما هو متاح له من وسائل المعرفة المنظورة ، ومما لم يتح له من وسائلها الغيبية التى لا ينالها الا بعد أن يؤمن بالغيب ، ويصل روحه ووجدانه بالغيب .

وسواء مضينا مع السورة لنعلم منها نموذجا من ضلال الانسان الفكرى حينما يطفى اذا استغنى ، بدلا من أن يشكر ، حتى يبلغ من طغيانه اذا استغنى بالماديات أن ينهى الناس عن دعاء الله ، ليصدهم عن الايمان بالغيب ، ليجعل من نفسه الها وطاقوتا يحكم جهلاءهم ، فان السورة تتلاحم بجزئها الاول وجزئها الثانى مع سورة المدثر ، ثانية سور القرآن نزولا ، مؤيدة ما قلنا من أن ترتيب النزول يساير حركات النفس الانسانية وتفاعلها مع الدعوة الجديدة بالدفع الى الامام ، أو بالتقويم عند الانحراف ، الى جانب الاهداف الاخرى التى شرحتها .

كيف تفاعلت النفوس اذن بهذا الاعلان القرآنى الجديد الذى تلقاه الرسول الاعظم ؟

همس هنا وهناك بين أرجاء مكة ، تعليقا على ما حدث بالأمس القريب لمحمد بن عبد الله فى غار حراء ، حيرة فى تفسير هذه الظاهرة فى داخل الرسول العظيم . وفيما يجب أن يعمل بعدها ، والزوجة الوفية الرحيمة الزكية خديجة بجواره تبعث فى قلبه الطمأنينة والامل الكبير . وكان لابد لهذه الحيرة من نهاية ، ولهمس الناس من قول فصل ، ولهذا نزلت سورة المدثر تضع الرسول أمام رسالته ، وتعلن حكما فاصلا أمام زعماء قريش الذين بدأوا يهمسون بمس من الجن أصاب الرجل الأمين محمد بن عبد الله ، وتحدد الخطوط العريضة للرسالة فى : الانذار ، وتكبير الله ، وهجران الأصنام ، وطهارة المظاهر والباطن ، والصبر على الأذى .

وكان انذار الرسول لقومه ، وبدأت قریش تنقسم على نفسها ، بين قلة مستعدة لتقبل الايمان الغيبي ، وكثرة لا صقة بالمادة وحدها ، بدأت تعلن جنون الرسول العظيم ، وتأخذ من جنونه منطلقا لصد الناس عن دعوته ، واعداد العدة لاضطهاده واضطهاد القابلين لها .

ولم تكن تعليقات القرشيين على الدعوة الجديدة بجنون الرسول بدعا بين مناهج الفكر والفهم للرسالات السماوية ، فتلك سمة لازمة لأولئك الذين غلفت قلوبهم بأهوائهم ، ردها القرآن فى قصصه عن الأمم الفاسدة مع رسلها .

وكان الرد الطبيعى أن يسجل القرآن حقيقة أمر الرسول ، وحقائق هؤلاء القرشيين المارقين ، التى تعتبر امتدادا لمنطق الكفر والاحاد فى كل زمان . فنزلت سورة القلم ، تحقق كمال عقل الرسول ، وتشيد بخلقهم العظيم ، وتعمده بظهور الحق على الباطل ، وترده الى علم الله بالمهتدين والضالين دون الرجوع الى علم البشر ومقاييسهم ، وتحذره من طاعة هؤلاء الادعياء الذين غلف قلوبهم حب المال والبنين .

ثم ماذا ؟

آمن بالرسول جمع قليل ، وثارت فى وجهه غاصفة هائجة من العداء والمقاومة العنيفة من شأنها أن تفت فى عزيمة أقوى الرجال ما لم يكن مؤمنا بقوة القاهرة عليا ، هى أقوى من كل القوى البشرية مجتمعة .

ومع العناية الرحيمة الفاضلة من الله تعالى على الرسول فقد وجهه سبحانه الى منهج تربوى جديد ، من شأنه أن يجعل الانسان على صلة دائمة بمصدر القوة القاهرة العليا ، مستعدا للوفاء بأعظم الأعمال ، والثبات أمام أشد التبعات والأهوال . فنزلت سورة المزمل ، وفى صدرها هذا المنهج الجديد للرسول وأتباعه الذين ألقيت على كواهلهم التبعات الأولى للدعوة ، ولكل من يريد الخطوة بعون الله ونصره مدى الزمان .

وهذا المنهج ينحصر فى قيام الليل ، وترتيل القرآن فى صلاة الليل ، استعدادا للقول الثقيل الذى يوشك أن يتوالى القاؤه على الرسول ، وللهجر الجميل لأهل الأوثان ، والصبر على ما يقولون ، الى آخر ما فى هذه السورة من أوامر تتسق تمام الاتساق مع سير الدعوة .

وفى كل تلك السور الأولى زاده الله معرفة بأصول التوحيد وتاريخه ، وطبائع الكفر ومنطقه ، وذلك تلاحم وحكمة فى الترتيب لا يردها عقل

مستقيم ، ودليل على ثراء هذا الترتيب النزولى بالعلوم والمعارف الاسلامية المتلائمة مع شمول الدعوة وصلاحتها لكافة العصور والأجيال .

بين ترتيب القرآن فى المصحف وترتيب النزول :

ما رأينا ولا سمعنا بكتاب ألفه عبقري فى زمانه يعطيك من مراحل تأليفه وتسويده منهجا عالميا ومنه فى نهاية تبييضه واخراجه منهجا عالميا آخر ، اللهم الا أن يكون مؤرخا ، أو عالما أو تجريبيا من علماء الاجتماع أو الفيزياء ، ثبت تجاربه ومشاهداته أو الأحداث التى يقع عليها على مدى طويل من الزمان ، ثم يضع على أساس تلك المشاهدات نظريه أو قانونا علميا ، أو قاعدة من تلك القواعد التى تسمى فلسفة التاريخ . ولكن هذا المؤلف أو ذاك يستبعد الكثير جدا من مراحل اعداد كتابه لما شابها من خطأ أو ارتجال ، أو انعدام للجدوى والفائدة .

ومع ذلك فان هذا الكتاب أو ذاك رغم الجهود المضنية التى عاناها المؤلف ، لا يمكن بأى حال أن يكون وافيا بحاجات العصور والأجيال ، كما أنه لا يمكن أن يكون حقا غير قابل للنقض والتغير ، فما أسرع ما تختلف المشاهدات فى المعامل وتتغير القوانين العلمية ، وما أسرع ما يثبت قصور النظرية الاجتماعية ، أو تصادمها مع غيرها فلا يستقر الناس على رأى ، ولم يستقروا منذ مطلع التاريخ حتى الآن .

وذلك لأن الانسان مفردا أو مجتمعا مهما أوتى من قوة الفكر لا يمكن أن يحيط بالفطرة وقوانينها حتى يصلح أن يكون مرشدا لها ، وهاديا من الضلالة . اذ أنه لا يحيط بالفطرة علما الا خلقها سبحانه ، ومن الفطرة ألا يحيط بمقيد هر الانسان بمطلق هو سر الله فى خلقه ، وكل ما يعلمه الانسان من تلك الفطرة أجزاء تقل أو تكثر ، ولكنها لا تصلح منهجا عالميا للسلوك ، ولا حتى منهجا محليا غير قابل للنظر ، اللهم اذا كان ترجمة أمينة لمقاصد فطرة الله فى خلقه ، وهو عمل لا يتهيا الا لمن يفقهون عن الله ، (واتقوا الله ويعلمكم الله) .

والقرآن وحده هو الكتاب الذى يعطيك من كل وجهة من وجهتى ترتيبه منهجا عالميا جامعا مانعا محكما لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فهو فى ترتيبه النزولى كما قلنا . منهج لتأسيس دعوة ، وأسلوب اقناع بعقيدة ، وطريقة تبشير وانذار ، ودحض كامل لمنطق الاتحاد المريض وهو فى ترتيبه المصحفى أسلوب حياة ، وبناء حضارة ، ودستور للعالم كله محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه ، أحكم ترتيبه من هذه الوجهة ليكون

هداية للمؤمنين ، من حيث كان الترتيب النزولى هداية للمؤمنين ، وتدرجا بالكافرين أو اللادينيين الى مرة الايمان ، وهو فى كلا الحالين نبع لا يفيض للأسرار والعلوم .

فاذا ارتاد الدعاة مجاهل الاحاد عاملوا أهلها على مقتضى ترتيب النزول فاذا ثاب الناس الى الايمان وضعوا بينهم وجهه الآخر وهو ترتيب المصحف ليكون أسلوب حياة ، ووسيلة بناء لجحفل جديد من جحافل الدعوة والانطلاق على وجه الأرض تحت راية الايمان .

ومما يلقي الضوء على كلا الترتيبين : أن نحاول تفهم حديث الله عن كتابه فى أول كل منهما . وفى مفتتح الترتيب النزولى نجد الحديث عن القرآن فى سورة المدثر دفاعا عنه ضد المعرضين عنه ، والذين نسبوه الى السحر أو قول البشر ، ثم تقرير يؤكد أنه تذكرة . وذلك فى قوله تعالى :

ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر - ٢٣ - ٢٥) . وقوله : (كلا انه تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون الا ان يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة - ٥٤ - ٥٦) .

ويصور القرآن نفور الكافرين من القرآن والرسول بقوله تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنقرة . فرت من قسورة - ٤٩ - ٥١) .

وفى سورة القلم ، ثانية سور القرآن تساولا للقرآن حسب ترتيب النزول يمضى الحديث مع الوليد بن المغيرة أيضا فى قوله تعالى : (عتل بعد ذلك زنيم . ان كان ذامال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسهمه على الخرطوم - ١٣ - ١٦) . وفى نهاية السورة يقول تعالى : وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون . وما هو الا ذكر للعالمين - ٥١ ، ٥٢) .

وفى مفتتح الترتيب فى المصحف نجد الحديث عن القرآن مختلفا تماما . وفى أول سورة البقرة يقول الله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب - ٢ ، ٣) . وبعد قليل يقول الله تعالى : (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها اثناس والحجارة أعدت للكافرين - ٢٣ ، ٢٤) .

فالحديث عن القرآن فى أول الترتيب النزولى يتجه فى سورة المدثر

الى تسفيه قول الوليد بن المغيرة فى القرآن : (ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر) • ثم ينمى على مثل الوليد الاعراض عما فى القرآن من تذكرة ، ويصور هذا الاعراض بنفور الحمير النافرة من الأسود • فكان الاعراض قد جاء بعد نظر وكشف لحقيقة القرآن ، وهو الأمر الذى حدث من الوليد حين سمع القرآن من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتأمله تأملا واعيا ، فمس من قلبه منطقة الاعجاب والقرب من الايمان ، وقرر أنه ليس قولاً من أقوال البشر ، فلما زجره أبو جهل ، وذكره الاستقرائية القرشية عاد وفكر وقدر ثم قال ما قال معرضاً عما مس قلبه من حنين الى القرآن •

فكان القضية ليست قضية الوليد ، وانما هى قضية أمثال الوليد ، وهم كثيرون فى كل عصر • قضية الاحاد والاعراض عن الذكر ، وأسبابه ودوافعه ، فالوليد هو التجسيد الواقعى لعناصر الاحاد ، والذى اجتمع فيه منطق الكفر والعناد ودوافعه جميعاً ، ولا بد أن يوضع هذا التجسيد الواقعى أمام المؤمنين فى مطلع الدعوة حتى يكون نموذجاً يقاس عليه مثله على مدى الزمان الطويل •• والا فما قيمة فرد من خلق الله كالوليد حتى يحظى بهذا القدر من الآيات فى سورتي المدثر والقلم ؟!

ففى سورة المدثر يقول الله تعالى عن منطق الكفر والعناد والاعراض فى صورة الوليد بن المغيرة : (ذُنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً • وَجَعَلْتَ لَهُ مَالاً مَمْلُوداً • وَبَنِينَ شُهُوداً • وَمَهَلَتْ لَهُ تَهْمِيداً • ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ • كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدَ سَاعِدَهُ • إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ • فَفَقْطَلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ نَظَرَ • ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ • ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ • فَفَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ • إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ • سَاصِلِيهِ سَقَرُ - ١١ - (٢٦) •

وفى سورة القلم يمضى القرآن مع الوليد فيقول تعالى : (وَلَا تَطْعُ كُلَّ حِلَافٍ مِثْنٍ • هَمازُ مِثْنٍ بِنَمِيمٍ • مَنَاعُ لِلْخَيْرِ مَعْتَدِ أَثِيمٍ • عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ • أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ • إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ - ٨ - ١٥) •

وهنا تتضح الصورة ، وتتألق الحكمة ، فالتعزز بالمال والبني والعشيرة والجاه ، والاستعباد لتلك المظاهر ، وحرص القلوب عليها ، والطمع فى المزيد منها ، يجعل الانسان نافراً عن كل ما يهدد هذا المتاع وذلك الجاه ، متجنياً على القيم العليا ، واصفاً اياها بغير ما هى عليه من السمو والعظمة ، يقسم أغلظ الايمان ليدحض الحق ويعلى كلمة الباطل ، ويفرق بين الناس حتى

لا يجتمعوا على الحق ، ويسلك لذلك طريق النميمة والهمز ، كل ذلك بسبب حب المال والفناء فى متاعه الزائل . ولكن هؤلاء المعاندين لا يصدر عن حق آمنوا به ، وإنما هو العناد والمكابرة ، والفزع من زوال الجاه والمال والرئاسة ، ولهذا نسبوا القرآن الى نوع من التفوق البشرى هو السحر ، أو الصلح بالتاريخ ، ولم ينسبوه الى الغيب الذى هو فوق البشر والأكوان جميعا .

هكذا كان كفار العرب الجبابرة وغيرهم من أساطين الكفر فى الرسالات الأخرى .

قال قوم شعيب لشعيب : (اصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء - ٨٧) هود .

وقال قوم لوط عن لوط : (اخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم اناس يتطهرون - ٥٦) النمل .

وقال فرعون عن موسى : (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتيك بسحر مثله - ٥٧ ، ٥٨) طه .

وقال قوم هود لهود : (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء - ٥٤) هود .

وقال القرشيون عن نبي الاسلام : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - ٣١) الزخرف .

وكان اليهود يخافون على مناصبهم ، فكتفم علماءهم البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وفزع اليهود حديثا على ما كفروا من أجله وهو المال وتجارة الشهوات فابتكروا الشيعوية ديناً ، وانفقوا الملايين لاقتناع الناس بأن الايمان بالله أفيون الشعوب . ولم يكن ذلك جديداً فى الفكر اليهودى الملحد ، فقد اتهموا الله سبحانه وتعالى بأنه اقطاعى يحجز المال عن الناس فقالوا : (يله الله مغلوله) . وبأنه مراب فاحش الربا ، فقال جبرهم فنحاص معلقا على آية الصدقة لأبى بكر : (ان ربك قد افتقر ، وانه يأكل الربا عشرة أضعاف ، ونحن نأكله ضعفا واحدا) . وقاموا بما يشبه الثورات الشيعوية الحديثة حين تاروا على المن والسلوى ، وطلبوا القناء والبصل ، وحينما طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة ، بل وحينما طلبوا منه أن يجعل لهم أصناما كأصنام الكافرين .

هذا هو منطق الالحاد وطاغوته الذى افتتح الله كتابه به على ترتيب النزول ، وتلك هى أهميته العظمى التى كان من الواجب على المسلمين دراستها من خلال ترتيب نزول القرآن ، ولكنهم بكل أسف أغفلوا هذا الجانب فأغفلوا بهذا الاغفال بابا هو من صميم دعوتهم ، ومن أصول ثقافتهم ونجاحهم ، ومن مبادئ علمهم بعدوهم ، وأصبح دفاعهم عن دينهم فى مواجهة مذاهب اليهودية العالمية سطحيا لا يمت الى جذور الصراع بأية صلة ، وأمعنوا فى السطحية حتى نسبوا الى القرآن أنه أول دستور سماوى نادى باشتراكية ماركس ، وهذا هو قصارى ما تريده اليهودية العالمية من المسلمين لتمضى على الطريق فى غزو القرآن بهذه العقول النخرة المتهالكة .

وتسمية القرآن فى مطلع النزول بالذكر ذات دلالة عظمى على منهج التربية والدعوة فى الاسلام ، فهى تسمية تساير مضمون أول سورة العلق تياما . فالذكر مقصود بمعانيه ، وهى : ملكة حفظ المعلومات وجمعها ، أو توارد المعانى على القلب عند الحاجة اليها ، أو ذكر الله بالقلب واللسان حتى يكون الذاكر مراقبا لله فى كل حركاته وسكناته ، أو الانتفاع بما فى القرآن من مواعظ وحكم وعبرة . فتلك المعانى كلها مرادة من الذكر ، وهى مع أول سورة العلق تمثلان نفس المنهج التربوى متكاملأ ، وهذا المنهج المتكامل هو خير ما يقاوم تيار الكفر ومنطق الالحاد ، بتكوين قاعدة عريضة وصلبة من الايمان الحق بالقوة القاهرة العليا .

ثم نأتى الى حديث الله تعالى عن القرآن فى مطلع ترتيب المصحف فنرى العجب العجاب من حكمة الله فى ترتيب كتابه الحكيم ، فالسورة الحادية والخمسون فى ترتيب النزول تتصدر القرآن فى ترتيب المصحف ٥٥ فما حكمة هذا التصدر ، وما سره ؟

نزلت سورة البقرة بالمدينة ، والمدينة بوضعها الرمزي بل والأصيل هى حاضرة دار الاسلام ، وعاصمة الحكم لامة الاسلام ، ومنطلق الفاتحين المبشرين بالدين الجديد ، ومركز الدعوة ضد دار الكفر فى مكة ، وفيما الى مكة والمدينة من أقاصى الجزيرة ، وفيما نخم المدينة من أرض اليهود . أى أن المدينة قد أصبحت قاعدة الصراع والدعوة ، ومجتمع المؤمنين القادة الأوائل ، وكان القرآن قد استقر بمنطقه وقوته بين المؤمنين ، وخلف بين كفار مكة بعد الهجرة فزعا أطاش منهم الصواب .

لقد مضت مرحلة الذكر بمعانيها التربوية الأولى ، وأصبح الذكر محرونا بالهدى للمؤمنين فى الحاضرة الجديدة للاسلام ، وفى كل دولة ينتشر

فيها الاسلام فيما بعد عصر الرسول الى آخر الزمان ، وتستقر فيها دعائمه ،
وتتجاوز مرحلة الصراع بين العناد والاستسلام .

وحاجة البناء الجديدة في المدينة وما شابهها من حواضر الاسلام المكلفة
بالمجاهد لنشر الاسلام الى الهداية ، وحاجتها الى تحديد صفات المؤمنين
وخصائصهم لا تدانيها حاجة من حاجات الأمم الناشئة ذات الرسالات
والدعوات الكبرى . وذلك ليستوثق كل مؤمن من نفسه ، ويكتشف بنور
الهدى وظاهر العلامات ذلك النوع من الناس الذين تصاب بهم المثل العليا
في كل زمان وهم المنافقون .

والهدى يبدأ من فطرة الانسان ، وما أودعه الله فيه من ملكة الفرق بين
الحق والباطل اذا لم يعمل على افساد فطرته بالتمرغ في وحل الهوى وتلك
هي التقوى ، ثم يتدرج بعد ان يزول الهوى عن النفس وتتجرد الفطرة الى
فقه ما نزل من القرآن ، وتعرف وجوه حكمته ، ثم يتدرج بعد احكام هذين
الوجهين الى الظفر بعون الله على الهداية والتقوى (**والذين اهتلوا زادهم هدى
وأتاهم تقواهم**) . وهنا يستقيم وجه المؤمنين على طريق الرضوان الالهى .
الى جنة الخلد ونعيم لا يبلى بحول الله .

أما سمات المؤمنين المتقين الظافرين بعون الله على الهدى والتقوى فقد
اعقبت وصف القرآن بأنه هدى في مطلع سورة البقرة . فالمؤمن كما قلنا
يجرد نفسه عن الهوى ، ويفقه بفطرته ما دعى الى فهمه من كتاب الله ،
ودعوة الرسول ، فيمنحه الله مزيدا من الهدى ، ويؤتيه على الفور درجة
التقوى ، وفي التقوى يندرج : الايمان بالغيب ، واقامة الصلاة ، وانحلال
قبضة القلب واليد عن المال وانفاقه في سبيل الله ، والايمان بالرسول
والكتب ، واليقين بالبعث والحساب في الآخرة . أى هي : وصل الحياة
الآخري بالحياة الدنيا ، على الوجه الذى شرحناه في صدر هذه الدراسة .

وهنا يتميز المؤمنون المتقون بعلامات ظاهرة ، وعلامات أخرى باطنة
كاليقين بالآخرة لها دلائل من السلوك الظاهري ، وهذا التمييز للمتقين يعزل
تلقائيا المنافقين فلا يخفون على مؤمن تقى أورثه اليقين بالغيب بصيرة نافذة ،
وفراسة لا تخطئ . ومع ذلك فلم يكل الله المؤمنين الى جهودهم فى كشف
المنافقين دون أن يمنحهم مزيدا من الهداية الى معرفتهم بسماتهم الظاهرة لكل
ذى عينين ، وذلك لخطورة هذا النوع من الناس على بناء الحضارات فى كل
زمان ، ولرواج خداعهم لدى ضعف الايمان . ولهذا مضت السورة فى تحديد
معالم النفاق من قوله تعالى : (**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر
وما هم بمؤمنين - ٨**) الى (**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله**

على كل شيء قدير - ٢٠) . أما تفصيل المراتب النفسية للنفاق ودوافعه
فموضوع طويل يخرج بنا عن مقصود الدراسة .

ولقد فطن الامام السيوطى الى سر ترتيب المصحف من هذه الوجهة التى
شرحنا طرفا منها غير الذى تحدث عنه فقال فى كلامه عن سورة البقرة
ما تسوقه بتصرف :

كان خطاب النصارى فى آل عمران أكثر ، وخطاب اليهود فى البقرة
أكثر ، لأن التوراة أصل ، والانجيل فرع لها ، والرسول دعا اليهود
فى المدينة ، ولم يجاهد النصارى الا آخر الامر وسورة النساء تضمنت
أحكام الاسباب التى بين الناس مما هو مخلوق لله ، ومقدور لهم ، كالنسب
والصهر ، وهو أساس بناء المجتمع . ولهذا تضمنت أحكام النكاح ومحرماته ،
والموارث المتعلقة بالارحام ، وأما المائدة فسورة العقود التى تنشأ عن الجهاد
والصراع بين أمة الاسلام والأمم الأخرى ، وتضمنت تمام الشرائع ، ومكملات
الدين ، وصيانيته من عوامل الهدم ، كتحريم الخمر ، وعقوبة المعتدين من
السراق والمحاربين الى آخر ما قاله فأبدع فى القول .

وحينما دقت النظر استبان لك معنى جديد من معانى الترتيب ، فما
يصح فى منطق القول أن نحدد مرادات الله ، وهو المطلق عن الاطلاق ، والمحيط
بالعقول والمواهب .

ولو ذهبنا مع القرآن مرتبا فى المصحف من أوله الى آخره لوجدناه
على هذه الوتيرة : شعار أمة مجاهدة مؤمنة كلها هدى ونور قد انزل بنور
هدايتهم المنافقون ، ووضعوا فى صف واحد مع المشركين فى وجوب جهادهم ،
بعد أن كان على ترتيب النزول وسيلة اقناع ، وأداة صراع مع منطق الكفر ،
وجبروت النفاق ، ودفاعا عن مقدسات الهدى والايمان . وما كان على ترتيب
النزول مقدما عاد فوضع فى أماكنه بحيث لا تخطئه الحكمة ولا يعدوه الاحكام
والتفصيل ، وتلك دلالة كبرى على اعجاز القرآن ما بعدها دلالة لطالب عظمة
القرآن . وفى كتاب الامام السيوطى الذى الحقناه بهذه الدراسة خير دليل
نقدمه على صحة ما نقول .

ولقد عرف سر ترتيب القرآن قديما بعلم المناسبات ، وما عرف منه
فإنما هو ما فى ترتيب المصحف ، أما أسرار ترتيب النزول فلا نعلم أحدا
تعرض له فى كتاب ، لا فى القديم ولا فى الحديث ، الا قليلا فى كتب
الأصول .

ورغم كثرة كتب التفسير التقليدى فان المؤلفات فى سر ترتيب القرآن

أو علم المناسبة قليلة جدا ، فالذي نعلمه من هذه الكتب كتاب البقاعي « نظم الدرر » ومنه نسخة كاملة بالمكتبة الأزهرية بمصر في ستة مجلدات كبار . وكتاب « البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن » لأبي جعفر بن الزبير ، شيخ أبي حيان صاحب البحر المحيط . وكتاب السيوطي هذا الذي نقدمه للقراء ، وكتاب آخر للسيوطي سماه « مرآة المطالع في المقاطع والمطالع » . وكتاب قال السيوطي أنه كتبه وجعل من أبوابه الموسوعية ترتيب القرآن سماه « اسرار التنزيل » .

وقد نبه العلماء قديما على اهمال علم المناسبة ، ولفتوا الأنظار الى أنه يحتوى على لطائف القرآن ، بل ان الفخر الرازي قال : « من تأمل في لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة الفاظه ، وشرف معانيه ، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته . ولعل الذين قالوا : انه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، الا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غير متنبهين لهذه الأسرار » .

وكان ابن العربي قد يشس من طلاب العلم والعلماء الذين أعرضوا جملة وتفصيلا عن هذا العلم الجليل ، وأعرب عن يأسه في قوله : « ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني ، علم عظيم لم يتعرض له الا عالم واحد ، عمل سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه ، فلما لم نجد له حملا ، ورأينا الخلق بأوصاف البطله ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددناه اليه » .

وقد جاهد الشيخ أبو بكر النيسابوري في نشر هذا العلم ، فجعل دروسه في التفسير قائمة على بيان المناسبات ، ومع ذلك فقد أعلن سخطه على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبات .

ومن العجيب أن اهمال هذا الجانب من الدراسات القرآنية المهمة لا زال قائما لم يتقدم خطوة واحدة الى الامام . فعلى الرغم من أن مؤسسات النشر الحكومية وخاصة داتبة على نشر الكتب التقليدية في التفسير ، والتي يغني بعضها عن مجموعها فقد أغلقت أبوابها في وجه أول تفسير موسوعي من نوعه تخصص في هذا النوع ، وهو « نظم الدرر » للبقاعي . ولا حجة لهذه الدور في انها تيشد الرواج التجاري للكتب ، فهذا الكتاب في الدرجة الأولى من الرواج لعدم وجود نظير له بين الدارسين ، ولجودته الفائقة من جهة أخرى . ولا حجة لكبار العلماء في جهلهم بهذا الكتاب ، فالذي نعلمه أنه كان بصفة دائمة على مكتب الشيخ المراغي ، واقتبس منه كبير من العلماء جملا صنع منها تفسيراً نسبته لنفسه . فان كان حبس الكتاب عن الطبع ليكون

مصدرا للسطو فبئس الصنيع ، وإن كان حبسه مع غيره تنفيذا لمخطط قصد به أن يظل المسلمون بين لفظ التكرار الممل لعلوم التفسير فيا خيبة المسعى .

ولقد نفذ غلاة الشيعة وكثير من الملاحدة من خلال موضوع ترتيب القرآن في المصحف ، وأطالوا القول طعنا في القرآن الكريم متذرعين باختلاف مصاحف بعض الصحابة في ترتيبها ، وغير ذلك من الذرائع الواهية التي تكفل الامام السيوطي بالرد عليها في مقدمة كتابه هذا . ثم ساق كتابه دليلا على أن ترتيب القرآن في المصحف توقيفي الى جانب الأدلة الأخرى التي فصلها في المقدمة .

وهناك دلائل من سياق ترتيب القرآن في المصحف تؤكد أن ترتيبه فيه ما كان الا بالوحي ، ولم يكن من صنع بشر ، لأن تلك الاعتبارات المرعية في هذا الترتيب لم تكن من منهج الصحابة في التفكير ، ولا سمعنا أن اجتماعا حدث بينهم لهذا الترتيب ، اللهم الا ما روى عن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع . . . » وما دام هذا التأليف كان عند الرسول ، فما كان الرسول ناطقا عن الهوى ، لا سيما وقد صرح انه كان يرشد كتاب الوحي والحفاظ الى مكان الآية من سورتها عقب نزولها . ومن تلك الدلائل ما يلي :

١ - قوله تعالى في سورة البقرة : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم - ٢١) فالعبادة في الآية معناها : التوحيد . وهو أول ما يلزم العبد معرفته ، والايمان به ، ولهذا كان أول خطاب خاطب الله به الناس جميعا في أول سورة في القرآن ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في نفس السورة : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) قال الكرمانى : وهو علم الكمال ، أى العلم بالله وأسمائه وصفاته ، ولذلك عبر عنه بقوله : (الذى) .

وورود هذه الآية بهذا المعنى في أول سورة في المصحف مع أنها مدنية وليست مكية ، دليل على أن هذا الترتيب توقيفي من الوحي ، ويدل عليه قوله تعالى في سورة هود : (فأتوا بعشر سور مثله - ٣) وسورة هود مكية ، والمعنى : فأتوا بعشر سور مثله ، أى : من البقرة الى هود ، وهى العاشرة ، مع أن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة مدنيات نزلن بعدها .

فآية هود مستقيمة المعنى على ترتيب النزول ، باعتبار أن التحدى واقع على عشر سور من القرآن عامة غير محددة ، ولكن ترتيب المصحف حدد العشر ، وحدد أول ما يجب على العبد معرفته واعتقاده مثبتا في أول سورة من القرآن .

٢ - ومن دلائل الترتيب واحكامه قوله تعالى في سورة البقرة :
« **الا ابليس ابى واستكبر** - ٣٤) • ولقد جرت عادة القرآن في شأن العقيدة
أن يجمعها ، ثم يفصلها فيما بعدها من الآيات • وهذا هو الثابت في ترتيب
المصحف • وإباء السجود من ابليس يعتبر بيانا للعقيدة عن طريق بيان موانع
الايمان بها ، وقد جاءت تلك الموانع مجملة في قوله : (أبى) • ثم فصلت
فيما بعدها من السور على ترتيب لا يخلو من الاسرار واحكام الترتيب •

ففى سورة الحجر قال تعالى : (**الا ابليس ابى أن يكون مع الساجدين**
- ٣١) • وفيه بيان لموضع الإباء • وفى سورة الاسراء : (**قال أسجد لمن
خلقت طينا** - ٦١) • وهو بيان لعل الإباء • وفى سورة الكهف : « **الا ابليس
استكبر وكان من الكافرين** - ٧٤) • وفيه علة من علل الإباء وهى الكبر •
مع تفصيل نتائجها ، وانها تصل بصاحبها الى الكفر • فانهى بما بدأ به من
تقرير هذه القضية التى يقوم عليها الكفر فى كل زمان •

٣ - قوله تعالى فى سورة البقرة عن بنى اسرائيل : (**ويقتلون النبيين**
بغير الحق - ٦١) • وفى آل عمران : (**ويقتلون النبيين بغير حق** - ٢١) •
وفى سورة النساء : (**وقتلهم الأنبياء بغير حق** - ١٥٥) • فقد وردت كلمة
(الحق) معرفة بالالف واللام فى البقرة ، ونكرة فى آل عمران والنساء •
وقال المفسرون : ان المعرفة يراد بها الحق الذى أمر الله أن تقتل النفس بسببه
وهو قوله تعالى : (**ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** - ٦ : ١٥١) •
فكان أولى أن يذكر مقدما ومعرفا ، لأنه من الله تعالى ، ولأنه عام فى الشرائع
كلها • والنكرة فى آل عمران والنساء معناها : بغير حق فى معتقدهم ودينهم ،
فكان أولى بالتأخير ، لأنه خاص بفريق من الناس ، وليس عاما فى الشرائع
والديانات •

٤ - قوله تعالى فى دعاء ابراهيم الخليل عند بيت الله المحرم فى سورة
البقرة : (**رب اجعل هذا بلدا آمنا** - ١٢٦) • وفى سورة ابراهيم : (**رب
اجعل هذا البلدا آمنا** - ٣٥) • فكلمة (بلدا) جاءت منكرة فى البقرة ،
ومعرفة فى ابراهيم ، لأن الدعاء الوارد فى البقرة كان قبل بناء الكعبة ،
كما أشير اليه بقوله تعالى : (**بواد غير ذى زرع** - ٣٧) • فلما بنيت الكعبة ،
واستقر حولها الناس ، جاء الدعاء للبلد المعروف المحدد المعالم ، ولذلك جاء
معرفا ، وجاء عقبه فى ابراهيم : (**واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام**) وجاء
فى البقرة عقبه : (**وارزق اهله من الثمرات**) •

٥ - قال تعالى فى سورة البقرة : (**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون
الدين لله** - ١٩٣) وقال فى سورة الأنفال : (**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**

ويكون الدين كله لله - ٣٩) • وقد جاء هذا النسق على ترتيب القتال داخل الجزيرة العربية وخارجها • فالذى فى سورة البقرة يراد به كفار الجزيرة العربية ، لتكوين القاعدة العربية الأولى التى يناط بها نشر الدعوة خارج الجزيرة • ولذلك جاء فى الأنفال كلمة (كله) إشارة الى قتال جميع الكفار ، وقد تطابق الترتيب مع الواقع ، ورتبت الأوامر حسب تدرجها •

٦ - فى معرض التحدى بالقرآن جاء فى سورة البقرة خطابا لمنكرى أن القرآن من عند الله : (وادعوا شهداءكم - ٢٣) • ثم جاء فى سورة يونس: وادعوا من استطعتم - ٣٨) • وكذلك جاء فى سورة هود ، وذلك لأنه لما زاد فى السور المتحدى بها الى عشر سور ، زاد فى المدعويين فقال : (من استطعتم) • ولما كان التحدى فى سورة البقرة بسورة واحدة قل عدد المدعويين ، وانحصر فى الشهداء وحدهم •

وقد مضى الترتيب مسائرا للملابسات حتى سورة الاسراء ، اذ وقع التحدى صراحة على جميع القرآن ، فوجه الكلام الى الجن والأنس جميعا فقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو أن بعضهم لبعض ظهيرا - ٨٨) •

وبهذا ندرك تدرج التحدى من سورة ، الى عشر سور ، الى القرآن كله ، وملاءمة القرآن بين القدر المتحدى به ، ومقدار المدعويين الى معارضته ، فى ترتيب دقيق محكم •

٧ - وترتيب مجموعة من الآيات فى موضوع واحد تتجلى فيه الدقة الحارقة فى مراعاة التسلسل المنطقي للفكرة التى تدور حولها تلك المجموعة ، مما يقطع بأنه من عمل غير الصحابة ، أى أنه توقيف من الوحي ، لأن تلك الملاحظات لم تكن قط من الأمور التى جرى بحثها والكلام عنها فى عهد الصحابة كما تشهد بذلك آثارهم •

فقد جاء فى سورة النحل جملة (االه مع الله) خمس مرات متوالية • وختمت الأولى بقوله : (بل هم قوم يعدلون - ٦٠) • والثانية بقوله : (بل أكثرهم لا يعلمون - ٦١) • والثالثة بقوله : (قليلا ما تذكرون - ٦٢) • والرابعة بقوله : (تعالى الله عما يشركون - ٦٣) • والخامسة بقوله : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين - ٦٤) •

قال الكرمانى : عدلوا الى الذنوب ، وأول الذنوب : العدل عن الحق ، ثم لم يعلموا ، ولو علموا ما عدلوا ، ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال ،

فاشركوا من غير حجة ولا برهان ، قل لهم يا محمد : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

٨ - وفي ترتيب المسبحات قد استوعب القرآن هذه الكلمة ، كلمة التسبيح من جميع جهاتها ، على ترتيب بديع يتفق مع المعاني اللغوية تمام الاتفاق ، فلم يتقدم معنى يستحق التأخير ، ولم يتأخر معنى يستحق التقديم .

فقد استعملت الكلمة أولا في سورة الاسراء على هيئة المصدر (سبحان) ، لأن المصدر هو الأصل اللغوي لجميع المشتقات ، ثم استعملت بعد المصدر بالفعل الماضي في سورة الحديد والحشر والصف ، لأن الماضي أسبق الزمانين ، ثم استعملت بالفعل المضارع في سورتي الجمعة والتغابن ، ثم جاءت أخيرا بفعل الأمر في سورة الأعلى .

فاستوعبت الكلمة من جميع جهاتها على ترتيب بين أصلها وأزمعتها قل أن يظن اليه البشر الذين يخلطون بين الأزمنة والأصول والفروع .

ومما يؤكد أن ترتيب القرآن في المصحف آياته وسوره بتوقيف كثرة هذه الشواهد حتى تبلغ الآلاف المؤلفة ، منشورة في مؤلفات العلماء ، ومن البعيد جدا أن يكون الرهط الذين كلفهم عثمان رضى الله عنه بجمع سور القرآن في المصحف قد بحثوا عن هذه المناسبات ، ثم رتبوا القرآن على أساسها ، فكما قلنا هناك من المناسبات ما يشتمل على تقسيمات وتقريعات لم تكن من ثقافة العصر ، ولم يؤثر مثلها عن الصحابة ، ولم تظهر الا بعد عصرهم . كما أن المأثور من جمع القرآن أنه حدث ثلاث مرات : مرة في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبأمره ، كما قال زيد بن ثابت : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع ٠٠٠ والاجماع قد انعقد على أنه صلى الله عليه وسلم كان يرشد الصحابة الى مواضع الآيات من السور تلقيا من الوحي ، وعلى هذا فترتيب الآيات في سورها توقيفي من الوحي ، وكانت المرة الثانية في عهد أبي بكر ، فقد كلف زيد ابن ثابت بتأليف لجنة قامت بعملية تحقيق ومقارنة لنصوص القرآن المكتوبة بالمحفوظ في الصدور ، وكان عمل اللجنة كما يقول الحارث المحاسبى : عبارة عن نسخ القرآن من العسب والأكثاف والرقاع في مكان واحد مجتمعا . والمرة الثالثة في عهد عثمان ، وكانت لاعادة كتابة القرآن بلهجة قريش خوفا من فتنة قد تنشأ من اختلاف اللهجات والقراءات ، حتى اقتتل المعلمون والصبيان على ذلك ، ورتبت السور في هذه المرة ، وليس في الآثار أن مراعاة المناسبات المعنوية واللفظية كانت من عناصر الترتيب مطلقا .

وإذا كان هناك زعم بأن هذا الترتيب كان من فعل الصحابة ، فانه من غير المعقول أن يفطن أحد الى تسلسل الاشتقاق المحكم للمسبحات على الوجه الذى بيناه ، والى أمثال ذلك مما يحتاج الى درس لقواعد اللغة التى لم تكن قد عرفت بعد . والقول بالصدفة هنا تبطله الشواهد الأخرى المماثلة والتى لا تحصى ، والتى لا يمكن أن تكون الا عن وحى وتوقيف .

ولا ندرى كيف يؤكد بعض علماء السلف أن ترتيب السور كان من عمل الصحابة استنادا الى الاختلاف فى مصاحف بعض الصحابة مع هذه الشواهد التى تؤكد تسلسل المعانى والاشتقاقات اللغوية ، والوقائح التاريخية داخل السور وفى تسلسلها كما هو فى المصحف . وغاب عنهم : أن الترتيب التوقيفى لا يمنع مطلقا التقديم والتأخير فى القراءة ما لم تقرا السورة منكوسة من آخرها الى أولها ، وترتيب السور على النزول توقيف هو الآخر ، أما مصحفا أبى وابن مسعود فقد رد السيوطى عن خلافهما فى الترتيب للمصحف العثمانى . على أن قتادة كان قد عرض على عكرمة أن يؤلف القرآن على ترتيب النزول آية آية ، الأول فالأول ، ولكن المشروع كان مستحيلا ، اذ قال عكرمة : لو اجتمع الانس والجن على أن يؤلفوه كذلك ما استطاعوا . ولو استطاعوا لكان تأليفا توقيفيا سائغا هو الآخر .

بقى أن نشير - زيادة على ما ذكره السيوطى أو توضيحا له - بعض القواعد والأصول التى قام عليها سر الترتيب ودلت دلالة قاطعة فى الوقت نفسه على أن رعاية هذه القواعد والأصول لم تكن مألوفة ولا كانت من شغل الصحابة الذين شغلوا بالعمل وعلم العمل والجهد ، ولم يتفرغوا لهذه الأسرار التى أودعها الله فى الكتاب سرا فى ترتيبه كما هو فى المصحف .

قالوا : ان الأمر الكلى الذى يفيد معرفة مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أن تنظر الى الغرض التى سبقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج اليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد عن المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات الى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الأحكام أو اللوازم التابعة له ، والتى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع هذا الاستشراف الى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن .

وقالوا : ان التناسب أنواع :

منها مناسبة فواتح السور وخواتمها ، كما فى فاتحة سورة «المؤمنون» (قد افلح المؤمنون) . وفى نهايتها : (انه لا يفلح الكافرون) . وكما فى

فاتحة سورة ص (والقرآن ذي الذكر) • وخاتمتها : (ان هو الا ذكر للعالمين) •

ومنها مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها ، وقد اشبع السيوطي القول في هذا النوع •

ومنها اختصاص كل سورة من السور المفتحة بالحروف المقطعة بما بدئت به ، حتى لم يكن من الممكن أن توضع (الم) في موضع (الر) ولا (حم) موضع (طس) • وذلك لأن كل سورة بدئت بحرف ، فان هذا يقلب ويكثر في أثناء السورة • ومثل ذلك سورة (ق) ويونس ، فقد تكررت الكلمات المحتوية على القاف والراء في هاتين السورتين وأمثالهما من خمسين مرة الى مائتي مرة حسب طول السورة ، وهكذا في جميع تلك السور •

ومنها التناسب بالتنظير ، والتضاد ، والاستطراد ، والتخلص الى الغرض ، وغير ذلك من الأنواع التي يطول بها المقال ، ولكنها مع الأنواع الأخرى التي ذكرها السيوطي في كتابه هذا على كثرتها تؤكد أنها لم تكن من منهج جمع القرآن ، وأن هذا الترتيب من الوحي ، لا سيما وأن الترتيب الذي تم على يد عثمان رضي الله عنه كان سنة خمس وعشرين ، وبدأت الفتنة سنة ثلاثين ، واستمرت خمس سنين ، ولم تكن الفتنة عملاً مفاجئاً دون مقدمات كان منها شكوى عثمان من خلاف ابن مسعود وأبي ذر رضي الله عنهما عليه ، وكان انتهاء اللجنة التي قامت بكتابة المصحف الامام وترتيبه قبل وفاة ابن مسعود ، لانه كما يروى اعترض على تولية زيد هذه المهمة ، وقد توفي ابن مسعود سنة (٣٢) ، اذن فالزمن الذي استغرقه جمع المصحف لا يتجاوز أربع سنين تقريبا ، وهو زمن لا يكفي مطلقا لفحص الأساليب القرآنية والمعاني التي قصد منها ، والاعتبارات الكثيرة جدا والتي قام على أساسها الترتيب ، فلم يبق الا أنه توقيف من الوحي ، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير •

القرآن ومنهج الدعوة

من العسير أن نفصل القول في ارتباط الترتيب النزولي والترتيب المصحفي بمنهج القرآن في الدعوة على المستوى الانشائي لأمة العرب والمستوى الدستوري العالمي لأمة القرآن في العالم كله - من العسير امتيعاب

القول فى ذلك مفصلا فى هذه العجالة ، ولكننا نستعين الله فى رسم الخطوط العريضة التى تلقى ضوءا يكشف عن عظمة الحكيم الخبير سبحانه وهر يودع كتابه المبين وسائل الاعلام الناجحة لمن فقه وعقل وتدبر .

فمن المعلوم : أن الزمن الذى قضاه الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة - وهو نصف زمن الرسالة على وجه التقريب - اقتصرته دعوته فيه على العقيدة وروافدها ، ووسائل إعلانها وترسيخها على المستوى العربى القرشى المختار لنشر الدعوة فى الجزيرة العربية كلها ، ثم فى خارجها على مقتضى عموم الرسالة للبشر جميعا . ولم يشرع من العبادات فى مكة غير الصلاة ، وذلك لصلتها الوثيقة بالعقيدة بالعبادة من حيث هى تدريب عملى متكرر فى اليوم والليلة على (الاجتماع) الروحى الواعى فى وجدان العقيدة ، بقطع العلائق النفسية ، وطهارة المكان والجسد من النجاسة الظاهرة ، والقلب من كل شاغل دنيوى حتى يتوحد الانسان المصلى ، ثم يتوجه - وهو على هذه الحالة من الاجتماع - نحو الله الواحد فى مناجاة تفره بفيض من الايمان بعبوديته الكاملة للحق من دون الناس والشهوات ، وسلطان النفس ، وأوهام الضلالات الوثنية . أما تشريع الحلال والحرام والفرائض الأخرى فقد كان بعد الهجرة ، وبعد أن أتى هذا المنهج الحكيم ثماره فى أكثر من عشر سنين قضاه الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر ربه فى تدريب الرعيل الأول من أصحابه (عرب قريش) على أحكام العقيدة قولاً وعملاً ، وإسلاماً وإيماناً ، وذوقاً فى أعماق الوجدان وأغوار العقل .

كان لابد من هذه البداية الحكيمة ، لأن عقيدة يضطرب فيها المرء بين الإذعان والشرك ، لا يمكن أن تكون منطلقاً مأموناً للعواقب لأقامة بناء دين لامة رائدة ، كما أن الخلط بين التدريب على أحكام العقيدة وبين تشريع الحلال والحرام فى وقت واحد مظنة التفتل من عرا الإسلام إيثارا للهوى على المثل الأعلى ، وللحياة على الشهادة فى سبيل معبود لم تنعقد عليه القلوب .

وكان لابد من تأسيس تلك العقيدة فى مكة بالذات من دون بلاد الجزيرة العربية ، اذ هى وحدها البيئة المعزولة عن ضجيج الفلسفات التى دارت قضاياها حول الألوهية فى دولة الروم والهند ومصر وفارس ، ولا يمكن أن تستقر عقيدة تنمو بين تلك المذاهب الا وقد احتوتها تلك الفلسفات ، وزودتها بسلاح هدام من الجدل والمراء . وهى وحدها البلد التى يقوم بين ربوعها أول بيت وضع للناس : بيت الله الحرام ، وكان للبيت عندهم منزلة عظمى على شركهم ، كما كانت وظائفه كالرفادة والسقاية والسدانة وغيرها

مصدر شرف لا يدانيه شرف لمن يتولونها ، ومن هنا كان البيت الحرام بمثابة الوسيلة التعليمية الناجحة حينما تثبت النابتة الأولى للوحداية الشاملة فى جواره .

وانما اختار الله العرب وقريشا بوجه خاص ليكونوا خير أمة أخرجت للناس لأسباب كثيرة نذكر من أهمها : أنهم يحملون سمات العالمية فى دمائهم ، وسواء كانت تلك العالمية ناشئة من الهجرات القديمة ، أو كانت من طريق تكوين العنصر ، فان دم ابراهيم الكلدانى عليه السلام يجرى الى ولده اسماعيل مختلطا بدم المصرية الصالحة (هاجر) ثم يختلط دم اسماعيل هذا بدماء جرهم اليمنية ليكون العرب من قريش خلاصة هذه السلالة العجيبة بين سلالات البشر ، بما أودعه الله فيها من خلال الشرف ، وسلامة النفس من العقد ، والاستعداد لتفسير غير المنظور بالمنظور عن طريق المقارنة وتلمس انقراض الواضحة .

فالعرب رغم ما شاب طبائعهم الاصيله من سعار المال ، وقسوة القلب ، والاستعلاء على الضعيف ، والاغراق فى المحرمات ، كانوا على استعداد للمضى على طريق الحق بنفس القوة والصرامة التى مارسوا بها نشاطهم على طريق الباطل اذا أحسنت سياستهم ، وأحكم أمرهم على توجيهه منظم . فقد كانت لديهم صفات كثيرة تشير الى استعداد للتفوق والزعامة ، والجمع بين وعى الروح ووعى العقل فى ثقافة واحدة ، وكان من صفاتهم البارزة : عدم الاستجابة للعقد النفسية ، فبقيت روحهم المعنوية عالية حصينة من كل ما يخفئها أو يحد من اندفاعها ، مما أهلهم بحق لأن يكونوا أمة رائدة لحضارة القرآن .

ويقول الجاحظ فى هذا الصدد : « وقد فخرُوا بالعمى ، وذلك كثير ، واحتجوا بالعرج ، وذلك غير قليل .. واذا كان الاعرابى يعتريه البرص فيجعله زيادة فى الجمال ، ودليلا على المجد ، فما ظنك بقوله فى العمى والعرج وهما لا يستقدران ولا يتقزز منهما .. وقد يفر الاعرابى فى الحرب ، فلا يقر بالجبن عن الأعداء ، وبالنكول عن الأكفاء ، بل يخرج لذلك الفرار معنى ، ويجعل له مذهبا ، ثم لا يرضى حتى يجعل ذلك المفخر شعرا ، ويشهره فى الآفاق » .

ثم يقول فى هذا الشأن : « ويكون الاعرابى شختا (ضامرا خلفه لا هزلا) مهزولا مفرقما (لا يشب لسوء الغذاء) فيجعل ذلك دليلا على كرم أعراقه ، وشرف ولادته .. وفى ذلك أنشدوا

قد علمت أنا أتاويان من كرم الأعراق ضاويان

وانشدوا كذلك : * قرقمه العز وأضواء الكرم *

والأتاويان : مثني الأتاوى ، وهو الغريب . والضاوى : النحيف

خلقة .

وقال أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وقد غيره بعض نسائه

بالعرج :

قالت عرجت فقد عرجت فما الذى أنكرت من جلدى وحسن فعالى

أدع الرفاجة لا أريد نماءها كيما أفيد رغائب الاموال

وألف سهمى عن وجوه جمه حتى تصيب مقاتل البخال

والرفاجة : التجارة .

ويشير الجاحظ فى كتابه عن العرجان والبرصان الى ما وراء هذا الخلق من قوة الروح المعنوية التى تعتبر سمة لازمة لحماية دعوة الاسلام من العدوان وهى تخوض مع أعدائها معارك ضارية داخل الجزيرة وخارجها فيقول : « فبهذه النفوس حفظك الله حفظوا أنسابهم ، وتذكروا ماثرهم ، وقيدوا لأنفسهم بالأشعار مناقبهم ، وحاربوا أعداءهم ، وطالبوا بطوائفهم (جمع طائفة ، وهى الثار) ، ورأوا للشرف حقاً لم يره سواهم » .

ولم تكن هذه الروح المعنوية الفطرية عند العرب - لا سيما القرشيين منهم - دعوى عريضة دون سند من العمل السلوكى الجاد الذى يدعمها ، ويدل على صدقها ، وعلى صلاحيتها للحركة فى مختلف المستويات ، فالواقع التاريخي يحدثنا عن التدريبات العسكرية التى تصل الى أرقى المستويات فى العصر الأول . والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه كان يسابق عائشة رضى الله عنها ، وكان الرمي وتضمير الخيل من أهم أعمالهم العسكرية ، كما يحدثنا ابن عبد ربه فى العقد الفريد أن عمر بن الخطاب كان يمسك أذنه اليسرى بأصبعه اليمنى أو أذن فرسه اليسرى بيده اليمنى ثم يقفز على ظهر الفرس كأنما خلق هنالك . وكان ينصح المدربين العسكريين بأن ينزعوا الركب ، ويقفروا على الخيل وأن يلبسوا الحشن من الثياب كما كان يفعل معد بن عدنان الجدل الأعلى لقريش ، وكان يقول : « اياكم والسمنة ، فأنها عقلة (أى وثاق) وامشوا حفاة ، فانكم لا تدرون متى تكون الجولة » .

وعلى ضوء هذه المعلومات واشباهها نضع أصابعنا على الخطوط العريضة لأسلوب الدعوة القرآنية في العهد المكي عامة ، وفي ترتيب نزول القرآن بوجه خاص . . كان المجتمع القبلي بما فيه من المفاخر الجماعية والفردية لذلك المجتمع هو المثل الأعلى السائد بين العرب ، ومن أجله حفظت الأنساب ، واثارت الحروب ، وضرب المتنافسون عليه أكباد الإبل الى الكهان للمنافرة ، وتناشدوا الأشعار ، وعقدوا الأحلاف ، وتكاثروا في المال والعدد . ومن هنا كانت الموهبة العربية حبيسة في إطار لاصق بالأرض وما عليها ، ناثرة في داخل أطارها تريد أن تنطلق منه الى مدهاسها الذي يتناسب مع قوتها ، وصلاحياتها للامتداد ، ولا أدل على ثورة تلك المواهب طلبا للانطلاق من تلك الموجات التي اندفعت من داخل الجزيرة منذ القدم في شكل هجرات الى العراق والشام ، بل وإلى مصر على الراجح من دلالات الآثار والتواريخ .

وإذا كانت الموهبة أكبر من الهدف الذي تعمل له فقد تدارك الله تلك الأمة العجيبة بين أمم الأرض برسول من أنفسها ، وكتاب بلغتها ، وهدف متوازن مع مواهبهم ينطلق بهم من نطاق الأرض الى فسيحة الغيب . . ولم يكن اقتناعها بالإيمان بالغيب من السهولة بمكان . . ولهذا نرى منهج الدعوة القرآنية يتجه نحو بيان الهدف الجديد الذي يتحتم أن تعمل له كل المواهب العربية ويكشف عن الأخطاء السلوكية المانعة من المضي نحو هذا الهدف . ثم يكشف لهم عن قدرة الله وقهره فوق العباد ، ويتخذ من الترغيب والترهيب طريقا لزلزلة التجرد المادي الذي سيطر عليهم . ويتخذ كذلك من دلالات العقل إذا استخدم الامكانيات البسيطة وغير المعقدة ، والمتاحة لهم جميعا حجة على صدق العقيدة الجديدة ، وسلطان الله على الكون ومن فيه جميعا . وذلك واضح كل الوضوح في السور الأولى التي نزلت في مكة ، وكان هدفها : بناء الجيل الاول من أصلح العرب لموازة الرسول صلى الله عليه وسلم في بسط سلطان الدعوة على نطاق أوسع . . ويمكن أن يتضح هذا المنهج بسهولة لمن قرأ السور الأولى على ترتيب نزولها ، وهي (العلق ، ون ، والمزمل ، والمدثر ، والتكوير ، والأعلى ، والليل ، والفجر ، والضحى) الى آخر ما هو معلوم من ترتيب النزول .

وخلاصة ما في هذه السور من عناصر الدعوة : تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يدعو أمة بأسرها ، منفردا عن المال والأعوان ، تتوالى عليه الاتهامات ، ويتحد ضده جبابرة المال ، وأسرى التراث الوثني ، وعباد الأهواء ، ثم التهوين من شأن المال ، والدعوة الى اعتباره وسيلة لا غاية . وتوجيه الانظار الى ما بين أيديهم من ظواهر الحياة يلتسمون منها الدليل على

المخالق القادر : وحثهم على إعادة النظر فى التواريخ الغابرة التى يقصها عليهم القرآن مثلاً فى عاد ، وادم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، والى أن الله بالمرصاد لكل أمة جنحت عن طريقه ، وكفرت بأئمة .

وكان لابد من هدم الفكرة القبلية والاستعلائية ، أو الفكرة العنصرية عند العرب ، اذ لا تستقيم دعوة عالمية على أساس من العنصر والقبيلة والجنس ، ولم تكن المواعظ وحدها كافية فى هذا السبيل ، ولذلك نجد الدعوة هنا تتخذ من العمل وسيلة لتأسيس مبدأ المساواة والاخاء أمام العقيدة بين الطبقات والأجناس جميعاً .

كان السابقون الى الاسلام هم الصورة المثالية لمجتمع الاسلام الذى اعتبر الايمان غاية الغايات ، وبذل فى سبيل تلك الغاية كل ما تعارف عليه العرب من التقاليد التى تحول دون تلك الغاية المثل . فكان مجتمع السابقين يجمع بين كبار الاغنياء وكبار الفقراء ، بين الأحرار والعبيد ، بين العربى والفارسى والرومى والحبشى ، بين البيت الهاشمى والبيت الأموى على ما بينهما من تنافس قديم . وكان اجماع مضمون لأول مرة فى التاريخ العربى على أن يلا العبد الفقير المستضعف الذى كان فى الصف الخلفى دائماً هو سيد من سادات المسلمين ، حينما اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه ، فكانوا يرددون فى مجالسهم « سيدنا أعتق سيدنا » .

هذا هو الأساس الاجتماعى الذى قامت عليه تلك الركيزة الايمانية بما لها من تبعات وأخلاق . . . وحدة الشعوب والعناصر والطبقات والأجناس فى اطار الاسلام . . . لقد أصبح الاسلام وحده هو مقياس الصلاحية ، ومناط الفخر ، فلا مال ، ولا جنس ، ولا عصبية ، وعاد الاسلام بالمجتمع الأول الى فطرته الأولى (كلكم آدم وآدم من تراب) وأصبحت رعاية الرحم الأولى للانسانية غاية الغايات ، دون اعتداد بالمنازلات والمفاخرات الجاهلية الهدامة . . . لقد عاد بلال وسلمان وصهيب الى مجلس أبى بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وما كان لهم بالأمس أن يرفعوا أبصارهم أمام أولئك

المسادة إذا استثنينا أبا بكر الصديق الذي كانت له خلائق معينة في الجاهلية
أسرعت به إلى الاسلام أول ما سمع به .

ومن عجائب المنهج القرآني للدعوة أن تنزل سورة النحل في مكة وفيها
قوله تعالى : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون
إيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) . نزلت هذه الآية
والمسلمون يعانون الشدائد في سبيل تكوين المجتمع الاول ، ما لهم حول
ولا قوة في الارض الا الاعتصام بالعقيدة وبالله وحده ، نزلت تحفزهم إلى
الامام ، وتبشرهم بأنهم سيكونون قوة عظيمة ، تلتزم باجتناح الحروب التي
يدفعها حب العظمة والضخامة ، وكان إلى جانب ذلك ومن نفس المعين حفز
الرسول أصحابه ببشريات تحققت كلها كما أوضحنا من قبل .

وجانب آخر من جوانب الدعوة يتصل اتصالا وثيقا بهذا التوجيه
القرآني الذي رفع همم الأوائل من مجرد قلة مضطهدة إلى آفاق أمة تسيطر
على مقدرات الأمم . . . ألا وهي التربية العسكرية والسياسية التي لا تستغنى
عنها أمة يعدها الله لهذا الشأن العظيم .

وكان تشريع الصلاة بمثابة التربية العسكرية إلى جانب كونه وسيلة
دائمة لترسيخ العقيدة وإعلانها فوق كل اعتبار . فإعلان وقت الصلاة بمثابة
النوبة العسكرية التي يستجيب لها جميع الجنود على الفور . واختيار بعض
أوقاتها من الأوقات التي تتراخى فيها الأجساد كالفجر والعصر هو نفس
الطريقة التي لجأ إليها العسكريون المحدثون ، صفوف الصلاة بنظامها
المشروع هي نفس الصفوف العسكرية ، واشتراط الطهارة في مواجهة
اشتراط البزة العسكرية المحكمة في المعسكرات دون نظر إلى النجس الذي
تنطوي عليه ، وإعلان الولاء في صف الصلاة لله وحده في مواجهة إعلان
الولاء لرأية الدولة وشعارها . ويتفوق الاسلام على جميع النظم العسكرية
هنا بالاعتماد على الباعث القلبي والوجداني في تنفيذ الأوامر ، وبأن
المطالبين بالمسارعة إلى الصلاة هم العقلاء من الأمة من سن العاشرة إلى ما لا
نهاية له من العمر ، رجالا ونساء ، فالأمة كلها في الاسلام معجدة على طريق
الهدى والإيمان .

وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة وما صاحبها من مؤامرات قريش
لإيقاع بالمهاجرين بمثابة التدريب السياسي على التعامل مع الأمم الأخرى
دون المساس بالعقيدة ، حتى لقد نجح المهاجرون نجاحا منقطع النظير في
الجهار بقول القرآن في المسيح أمام النجاشي الذي خضع قلبه للقرآن .

وعلى هذا فقد كانت الدعوة فى أول عصر النزول بمكة تعديلا للنظام
العسكرى الجاهلى ، وتربية للعقيدة فى قلوب المؤمنين ، وتأسيسا لمجتمع
الاسلام البرىء من العنصرية والقبلية ، وتدريباً للسابقين على احكام التعامل
مع الأمم الاخرى . وما كانت الهجرة الى المدينة الا وقد استكمل المسلمون
صلاحيتهم للعمل والاستقلال بسياسة الأمة ، فاستحكم أمرهم ، وأصبحت
العقيدة هى المثل الأعلى الذى يتسابقون الى الشهادة فى سبيله، بعد أن كانوا
يبدلون دماءهم فى سبيل المفاخر الزائلة .

أما نزول القرآن بالمدينة فقد أوضح الامام السيوطى أسرار شطر كبير
منه حينما تكلم عن سر ترتيب سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة
وأثر هذا الترتيب فى امتداد الأمة ، وخروجها من حيز تربية العقيدة الى
التربية السياسية الشاملة .

وخلاصة القول : أن نزول القرآن بالمدينة كان يهدف الى تكوين دولة
الاسلام بكل مقوماتها فى مواجهة دولة الكفر بكل مقوماتها فى مكة . وكان
الصراع بين هذين النموذجين لدولة الاسلام ودولة الكفر تدريباً حكيماً بالغ
الحكمة على الصراع بين أمة القرآن وأمم الكفر على سطح الأرض خارج الجزيرة
العربية . وكانت عوامل النصر وعوامل التخاذل ، واحكام الأبعاد السياسية
فى أيام الحندق وأيام الحديبية وأمثالهما من المواقف الاسلامية السياسية هى
روح الاسلام فى السياسة . تلك الروح التى تقسّس العهد ، وتجنح الى
السلم ان جنح اليه العدو ، ولا تقدم على الحرب الا دفاعاً عن النفس ،
وافساحاً لطريق الدعوة ان عاقته قوى الكفر . وكانت تشريعات الحلال والحرام
والفرائض الأخرى حماية للنفس فى زحمة الحياة ، وتعقد الأعمال من شطط
الهوى ، وسلطان الشيطان ، وحفظاً لسلطان الايمان على القلوب من أن
تطفئ عليه الانتصارات ، أو تحد من فاعليته زهرة الحياة فى الأمم المغلوبة .

وهكذا نلمس الحكمة المعجزة والبليغة فى دعوة القرآن ، وفى ترتيب
القرآن فى المصحف وما فيه من دلالة على أنه دستور أمة استكملت مقوماتها،
ويبقى عليها أن تدرك أسلوب العمل الدينى والسياسى فى العالم على هدى
هذا الترتيب .

الاسم السيوطي وكتاب

عاش العالم الاسلامي في محنة قاسية منذ غامت شمس الخلافة العباسية بتسلط الجانب الالحادي من الاعتزال على رأسها ممثلا في المأمون وفي القول بخلق القرآن ، ثم تكاثفت الغيوم بعد ذلك بفعل الترف والمجون ، وخمود الوجدان الديني ، والصراع بين الثقافات المتعارضة التي اتخذت من أرض الاسلام ميدانا لها ، وانتهى الأمر بانحلال الخلافة العباسية ، وبلورة الصراع في صورة مشوهة أطلق عليها اسم الخلافة الفاطمية بمصر والمغرب ، قال ساداتها : انهم من بنى فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وفرضوا بالقوة على المسلمين لونا ممسوخا من الفلسفة وسموه علم أسرار الدين ، وأسندوا استاذيته لدهية اليهود يعقوب بن كلث ، وعانت مصر الأمرين من مظاهر الارهاب حينما كانت تعرض رموس القتل على أسنة الرماح في طرقات القاهرة ، وحينما تشتد المجاعات نتيجة لاحتكار الخلفاء أقوات الناس ، واهتز اليقين في قلوب الناس بشيوع الخرافة حتى سجل أحد قضاة الشام أنه شهد نورا يعلن نهاية المجاعات ، وحلول رضوان الله على الناس ، وخربت البلاد نتيجة لصراع العبيد والأتراك والذي كانت تديره جارية دسها تاجر رقيق يهودي لتكون حظية للخليفة الفاطمي ، وأما للخليفة المستنصر بالله . ولم يرض الترك الا ببيع أثار قصر الخلافة ، وفاء لحقوقهم التي كانوا يطالبون بها ، وانتهت الخلافة الفاطمية تاركة وراءها : الخراب ، والخرافة ، وأوهام الحاكم بأمر الله ، وآثار الفكر اليهودي المشبوه ، والذي كان نتيجة لتحالف قرمطي شيعي ، ما زالت بعض فلوله تعمل في مجاهل العقول في ديار الاسلام .

وكان من الطبيعي أن يستولى المماليك العبيد الجنوبيون من أقاص آسيا على الحكم في مصر ، ولما كان هؤلاء المماليك فرسانا يحكم اقامتهم في المناطق

الجبلية ، وكانوا يعانون من عقدة الهزيمة والرق ، فقد حققوا فروسياتهم في التعصب للإسلام ، وصدد التتار عن دياره ، وفي الثورات التي لم تكن تخدم الا لتثور بين الأمراء ، وبين نيران تلك الثورات تخرب البلاد ، ويفقد الشعب مقومات حياته ، لا سيما وأن الأرض كانت اقطاعا للأمراء والجند ، ولم يكن الفلاح المصرى سوى جهاز انتاج محروم مما تحظى به الآلات الأخرى من عناية واصلاح .

كانت دولة المماليك بمصر عامرة بالمتناقضات . فبينما كان الأمراء يتصارعون في عنف على شباب (الأويراتية) الذين كانوا يقيمون بالحسينية للممارسة الجنسية الشاذة ، ويجبون الضرائب من ضامانات المغاني ، وكن بمثابة القوادات آنذاك ، كانوا أكثر من أسلافهم الأيوبيين والفاطميين عناية بإنشاء المدارس والخوانق والربط والمكتبات ، واجلال العلماء ، ووضعهم موضع الصدارة ، ونظرة سريعة الى ما سجله المقرئى من تلك المنشآت في المواعظ والاعتبار تلقى ضوءا كافيا على النهضة العلمية في جميع فروعها في ذلك العصر .

ولأمر ما أراد الله للإسلام ، وسنة سننها في الخلق في عصور التدهور السياسى ، والعدوان على الاسلام من الناحية العملية نبغ عدد كبير من العلماء ، ومؤلفى الموسوعات ، وحفاظ الحديث ، والمؤرخين ، والذين كانوا يجيدون التأليف فى فروع كثيرة من العلم ، وكان من هؤلاء ابن حجر العسقلانى ، وبدر الدين العيني ، والسخاوى والبرهان البقاعى ، والسراج البلقينى ، والشيوخ زكريا الانصارى ، وابن خلدون ، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، أحد أفراد الزمان علما وتحقيقا وحفظا ، وفقها واجتهادا فى مختلف الأصول والفروع .

ولد الامام السيوطى ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة . ويبدو أن أباه كان ذا ميول صوفية ، فقد حرص على حمله الى رجل من كبار الأولياء كان مجاورا للمشهد الحسينى يدعى أبا محمد المجذوب ، ليباركه ، وحفظ القرآن كما يحكى عن نفسه وهو ابن ثمانى سنين ، ويقول : أنه أجزى بتدريس العربية نى مستهل سنة ست وستين وثمانمائة ، أى وقد

بلغ من العمر سبعة عشر عاما . وفى هذه السن ألف شرحا للاستعاذة
والبسملة ، وعرضه على شيخه فى الفقه علم الدين البلقينى فكتب له عليه
تقريظا . ولزم العلامة سراج الدين البلقينى بعد وفاة والده علم الدين ،
وقرأ عليه عددا كبيرا من الكتب حتى أجازته بالافتاء والتدريس ، وحضر حفل
تصديده سنة ست وسبعين وثمانائة ، وله من العمر سبعة وعشرون
عاما .

ولما مات شيخه السراج البلقينى لزم الامام الصالح شرف الدين المناوى،
وواصل عليه دراسة الفقه .

ثم لزم فى الحديث والعربية العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى ، وواظب
على دروسه حتى مات ، فلزم الشيخ محيى الدين الكافيجى ، الذى وصفه
بأنه أستاذ الوجود ، ودرس على يديه التفسير ، والاصول ، والعريضة ،
والمعانى ، أربع عشرة سنة . ثم درس على الشيخ سيف الدين الحنفى التفسير
وعلمو البلاغة .

ولقد رحل السيوطى فى طلب العلم الى الشام ، والحجاز ، واليمن ،
والهند ، والمغرب ، وبلاد التكرور . ويقول : انه لما حج شرب ماء زمزم
لأمر منها : أن يصل فى الفقه الى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلانى . وعقد
مجلس املاء الحديث فى مستهل سنة ائنتين وسبعين وثمانائة ، أى وعمره
ثلاثة وعشرون عاما .

ويقول السيوطى : انه رزق التبحر فى سبعة علوم : التفسير ،
والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبديع ، والبيان على طريقة العرب ،
لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، ويعتقد أنه وصل فى هذه العلوم السبعة
سوى الفقه الى رتبة لم يصل اليها أشياخه . ولكنه يعود فيقول فيما يروى
عنه الشعرانى فى طبقاته الصغرى : انه وصل فى الفقه الى مرتبة الاجتهاد
الداخلى فى مذهب الشافعى ، وأن لترجيحه رأيا على رأى حجية المجتهد .

ولعل ما نلمسه واضحا فى حديث السيوطى عن نفسه من اعتداد
بعلمه ونسبة التفوق الى نفسه راجع الى عنصر الطموح المبكر الذى صاحب
تفوقه بالفعل ، اذ أنه طلب العلم ألف فيه فى سن مبكرة ، وقرأ الآلاف

من الكتب ، وانقطع للعلم بالفعل ، حتى شغله ذلك عما شغل غيره من العلماء ، من التهاقت على أبواب الحكام ومجالسهم يلتصقون زيف الشهرة في تلك الرحاب الصناعية التي تضفى بريقا مؤقتا على أهلها لا يمت الى حقيقة العلم بوشيجة لها وزنها .

ومما دفعه الى الادلال بعلمه خبرته بأخلاق الكثير من علماء العصر ، وجنوحه عن منهجهم الى منهج أهل الاستقامة والصلاح والدأب في تحصيل العلم . فهو يقول في ختام كتابه (الاتقان) : واني في زمان ملا الله قلوب أهليه من الحسد ، وغلب عليهم اللؤم حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد ، غلب عليهم الجهل وطمهم ، وأعماهم حب الرياسة وأصمهم ، قد نكبوا عن علم الشريعة ونسروه ، وأكبوا على علم الفلاسفة وتدارسوه ، يريد الانسان منهم أن يتقدم ويأبى الله الا أن يزيده تأخيرا . ومع ذلك لا ترى الا أنوفا مشمخة ، وقلوبا عن الحق مستكبرة ، كلمة هديتهم الى الحق كان أصم وأعمى لهم . . . وأيم الله ان هذا لهو الزمان الذي يلزم فيه السكوت والمصير حلسا من أحلاس البيوت ، ورد العلم الى العمل لولا ما ورد في صحيح الاخبار : « من علم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار » .

ولعل هذا الشعور الغالب على الامام السيوطي هو الذي دعاه الى اعتزال الناس في منزله بالروضة من مدينة القاهرة ، والانقطاع للعبادة والتأليف ، حتى ألف في ذلك كتابا سماه « التنفيس عن الفيتا والتدريس » .

لم يكن طموح السيوطي دعوى بلا برهان ، فقد ألف وأجاد وهو صغير السن ، اذ ألف كتابه « التحبير في علوم التفسير » وسنه ثلاثة وعشرون عاما ، وعف عن ارتياد مجالس السلاطين ، بل ورد عطاءهم الذي توالى عليه ، وألف رسالة لعلماء عصره في دحض مسلكهم الذي درجوا عليه من اللصوق بعطايا السلطان وأعتابه ، حتى أنه لما مات لم يتعرض السلطانان الفوري لتركته وقال : لم يقبل الشيخ منا شيئا في حياته ، فلا نتعرض لتركته بعد مماته ، وكان قد أرسل له عبدا وألف دينار ، فرد الدينار ، وأخذ العبد وأعتقه .

وقد تولى السيوطي بعض الأعمال الرسمية ، فقد تولى منصب الافتاء ،

ودرس بالمدرسة الشيعونية ، ثم بالمدرسة البيهرسية ، ولكنه أنف من تلك الأعمال الرسمية ، وعزف عنها ، وآثر الخلوة الى ربه وكتبه .

ولقد عد السيوطى فى مقدمة كتابه « حسن المحاضرة » مؤلفاته فبلغ بها ثلاثمائة كتاب ، فى التفسير والحديث ، والقراءات ، والفقه ، والتراجم ، والنحو ، والآداب ، والأجزاء المفردة . وقد بلغ « بركلمان » بكتبه أربعمائة وخمسة عشر كتابا ، وسجل له جميل العظم عددا ضخما من الكتب ، ولكن ابن اياس أبلغ عدد كتبه الى ستمائة كتاب .

وقد هاجم السيوطى عدد من علماء العصر ، منهم شمس الدين السخاوى فى الضوء اللامع ، وبرهان الدين ابن الكركى ، وابن الغليف ، وأحمد بن محمد القسطلانى ، ورماء هؤلاء بالسطو على كتب المكتبة المحمودية ونسبتها الى نفسه بعد التصرف فيها بالتقديم والتأخير .

وقد رد السيوطى على هؤلاء ردا عنيفا ، فكتب فى ذلك كتباً منها : الكاوى على تاريخ السخاوى ، والجواب الزكى على قمامة ابن الكركى ، والقول المجمل فى الرد على المهمل . وانضم اليه كوكبه من تلاميذه فى الرد على خصومه ، منهم : قاسم الحنفى ، والسراج العبادى ، والفخر الدينى ، والأمين الأقصرائى ، والرحمانى ، وغيرهم .

ولنا بعد ذلك أن نضع الرجل فى الميزان ، لنجد قمة من شوامخ العلم والحفظ وتنوع الثقافة ، والإجادة فى الكثير جدا من الكتب ، فنحن أمام قمة كالدر المنثور ، والمزهر فى اللغة ، وتاريخ الخلفاء ، ومخطوطته الجامعة « البدور السافرة فى أحوال الآخرة » والجامع الكبير ، وعشرات من أمثالها نقف أمام الرجل فى إجلال واحترام واكبار . ولئن صحح - جدلا - أنه سطا على كتب غيره ونقل منها ، فقد أحيا لنا تراثا مفقودا تماما بما أوقفنا عليه من نقول هائلة من تلك الكتب ، فله الفضل على أى حال .

أقول : لنا أمام رجل اذا وزعت كتبه - التى لا زال العديد الهائل منها مخطوطا - على سننى عمره ، ثم على أيامها ، فاننا نقف أمام رجل أغرق حياته كلها فى العلم والتصنيف على صورة تعد من أعاجيب الزمان التى كان فى عصره نماذج منها كابن حجر والعينى ، وقبل عصره أمثلة لها كابن الجوزى وابن القيم ، فعليه رحمة الله دائما أبدا بما أسدى لبنى دينه وللإنسانية كلها من خدمات يقصر عنها الثناء .

وفى ليل الجمعة فى التاسع عشر من جمادى الاولى سنة احدى عشرة وتسعمائة اسلم السيوطى روحه الطاهرة الى بارئها ، ودفن بحوش قوصون ، خارج باب القرافة بالقاهرة ، وما زال حيا بيننا بكتبه التى يرجع اليها الباحثون فى كل دقيقة من الزمان ، متعرضا بهذا الفضل لنفحات الرحمة الالهية المودعة لمن لم ينقطع عمله بعد موته .

كتاب تناسق الدرر واهميته :

اسم هذا الكتاب « تناسق الدرر فى تناسب السور » . وقد آثرنا تغيير اسمه على الوجه المثبت على واجهة هذه المطبوعة ، واثبات الاسم الاصلى فى داخله لسبب سنتحدث عنه فى منهج التحقيق .

ويوجد من هذا الكتاب نسخة واحدة بمصر ضمن مجموعة رقم ٤١٩ تفسير تيمور بدار الكتب المصرية ، ويقع فى اثنتين وثلاثين ورقة ، وعدد سطورها مختلف ، بين ثمانية وعشرين سطرا ، واثنين وثلاثين سطرا ، وهو مكتوب بخط بين النسخ والفارسى ، والنسخة جيدة ، ويبدو أنها نسخت فى عصر المؤلف ، كما يدل على ذلك نوع الحبر ، وطريقة الكتابة ، ويوجد بها بعض الاضطراب فى نصوص أماكن تقويمها من أصولها ، كحديث تحزيب القرآن الذى جاء على صورة مشوهة للغاية فى المخطوطة ، وكذلك بعض النقول الأخرى ، أما الأخطاء الأخرى فهى قليلة وهينة ، ولذلك لم نحتج الى اثباتها فى الهامش .

وقد سبق السيوطى فى التأليف فى هذا الباب فيما نعلم : أبو جعفر ابن الزبير فى « البرهان » ويقول السيوطى : انه لم يقف عليه . وفى عصره برهان الدين البقاعى فى « نظم الدرر » .

والكتاب كما يقول السيوطى - صادقا - من ولاد نظره ، ومحض تفكيره ، الا ما نقله عن غيره وعزاه اليه وهو قليل ، فهو فيما نرى تعقيب على كتاب البقاعى الكبير ، واستدراك عليه .

ويقول السيوطى : ان كتابه هذا عجالة من موسوعته الكبرى التى اشار اليها فى مقدمة هذا الكتاب ، والتى سماها « أسرار التنزيل » . ولم نعثر على أسرار التنزيل للسيوطى . وانما عثرنا على أسرار التنزيل للفخر الرازى ، وقد توفى الرازى عن الجزء الاول من أسرار له ولم يكمله ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، ولم يشر اليه السيوطى رغم اعجابه بالفخر

الرازي الذي رده من خلال كتابه هذا . فالظاهر أن السيوطي أراد أن يكمل أسرار التنزيل للرازي ، أو يكتب كتابا باسمه ينهج فيه منهجا بعيدا عن اتماحه ، رغم أنه أشار الى مسائل في الاتقان قال : انه ذكرها في أسرار التنزيل ، مثل تعليل خروج سورة الروم والقلم عن سنن السور المفتحة بالحروف المقطعة في اتباع تلك الحروف بذكر القرآن أو وصفه .

كان الرجل مستجيبا لطموحه ، فبدأ في أسرار التنزيل ، وانتهى من منهج الرازي الجدلي ، ويعارض به موسوعة البقاعي ، ولكن الموت عاجله قبل الاتقان وما زال ماضيا في أسراره ، وكتب كتابه هذا الذي تقدمه كذلك أثناء سيره في أسراره ، اذ أنه أشار اليه في الاتقان مرارا ، وأشار الى الاتقان في هذا الكتاب مما يدل على أن السيوطي كان يعمل في تأليف عدد من الكتب مرة واحدة ، ولا ينقطع لكتاب حتى ينتهي منه ، وتلك سمة من سمات الطموح والتطلع والاتقطاع للعلم وعلو الهمة .

ولقد انتهى من كتابة هذا الكتاب سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة ، وكان قد بلغ من العمر أربعة وثلاثين عاما ، وقبل وفاته بثمانية وعشرين عاما . وعلى هذا فالغالب أن أسرار التنزيل له ، اما أنه لم يتمه ، وكان مشروعا من مشروعاته ، واما أنه أتمه وفقد فيما فقد من التراث ، أو توارثه بعض أصحاب المكتبات الخاصة ، فله أعلم بمصيره .

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أهمية قضية التراث في عصرنا الحاضر من جهة ، ولى أهمية هذه الدراسة القرآنية من جهة أخرى .

أما التراث فيتعرض في عصرنا الحاضر لهجمات هزيلة من الأقزام العجزة ، وأهل الضحالة والقصور ، وأدعياء الفكر ، الذين يحكون انتفاخا صور العمالقة ، وهم خواء على هواء في نسيج العنكبوت . قالوا : ان التراث يمثل عصره ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أمعنوا في السخف فقالوا : ان عقلية مؤلفي التراث عقلية ضحلة ضيقة ، ودعوا الى كتابات تمثل العصر ، ومواجهة المذاهب الهدامة الحديثة . واعتدل بعضهم فقال : ان انتقاء المفيد من التراث أمر ضروري ، على أن يعرض بأسلوب العصر . وما هذه الدعوة النشيمة الا استجابة لمخطط يهدف الى صرف العرب والمسلمين عن الأسس التي قامت عليها حضارتهم ، وتوجيههم الى لون من غشاء الفكر لا يبدى ولا يعيد ، تكرار لا غناء فيه ، فقير في الجديد ، عاجز عن مواجهة مذاهب الهدم . فلو أنك أحصيت المكرر من الافكار ، وحذفته من كتب العصر ، ومحوت الحشو من أساليب تلاميذ المدارس الثانوية ، لما بقي الا كلمات اما مسروقة من

التراث ، واما نتيجة لبعض التوجيهات التى خلفها علماء الجيل الماضى • وعلى العكس ، لا تجد كتابا يعارض كتابا آخر فى التراث الا وفيه زيادات مفيدة ، وتهذيب لسابقه • أما علاج مذاهب الهدم عن طريق الاساليب الخطائية ، واغفال بناء الذات المؤمنة من الجذور ، فمثله كمثل من يعالج المصردور بالمساحيق الملونة لوجهه بلون أهل الصحة والشباب ، ويترك (الميكروب) يفترس الذات دون هوادة •

وفوق كل ذلك فالتراث هو النسب والصهر بين المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ، وأصول حضارتهم ، والداعون الى اغفاله كالداعين الى الغاء الشهادات المثبتة للانساب ، وأن يستبدل بها من تلك التى تحرر للقطاء المجهولى النسب • ومن هنا كانت أهمية التراث النفسية والعقلية التى لا ينكرها الا أهل الغفلة أو العملاء ، وهما شر مستطير وخطير •

وأهمية الدراسات القرآنية ترجع الى أهمية فرع من فروع التراث ، واليها ترجع أهمية هذا الكتاب ، فقد كثرت كتب التفسير التقليدية ، وأهملت الجوانب الأخرى التى لم تتعرض لها التفاسير ، أو لم تستوعبها مجتمعه ، كموضوع التكرار ، والترتيب ومقاصد القرآن ، وعجائب الاساليب والمشكلات • وهى موضوعات قد استغلها أعداء الاسلام أسوأ استغلال ، وفقد أهل العصر السلاح القوى الكفيل بحماية الشباب والشيوخ من آثار هذا الاستغلال •

لهذا كان هذا الكتاب من أهم ما يجب بعثه ودراسته ، الى جانب كتابنا الاول من سلسلة نواذر التراث ، وهو « أسرار التكرار فى القرآن » للكرمانى فهو يحسم القول فى مشكلة طال فيها الكلام هى ترتيب السور فى القرآن ، وقد ضيق السيوطى الخلاف حولها الى أضيق الحدود ، ورد عليها ، وساق كتابه دليلا على أن الترتيب توقيفى ، وأن القرآن بآياته وترتيبه وحى لا عمل للبشر فيه •

وقديما ذهب الامام بدر الدين الزركشى فى البرهان الى أن الخلاف فى هذه القضية لفظى « لأن النبى صلى الله عليه وسلم رمز اليهم بالترتيب ، لعلمهم بأسباب نزوله ، ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : انما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم ، مع قوله بأن ترتيب السور باجتهاد منهم ، فآل الخلاف الى أنه : هل هو بتوقيف قولى ، أو بمجرد استناد فعلى ، بحيث بقى لهم فيه مجال نظرى ، • وسبقه الى ذلك أبو جعفر ابن الزبير •

منهج التحقيق :

بعد نسخ الكتاب من المخطوطة قمت بإجراء التحقيقات الآتية :

١ - تقويم الأخطاء اللفظية ، وتقويم الحلل الأسلوبى الواقع فى النصوص بالرجوع الى مصادرهما من الحديث وأقوال العلماء ، حتى أصبحت فى صورتها الحقيقية .

٢ - مراجعة النصوص القرآنية على المصحف ، واثبات سورها وأرقام آياتها بين قوسين عقب الآيات .

٣ - اثبات الآيات التى أشار الى موضوعاتها المؤلف ولم يثبتها من واقع المصحف ، تماما لفائدة القارئ ، وتوفيرا لوقته ، ووضعنا كل ذلك فى الهوامش .

٤ - اثبات ما فتح الله به من أسرار الترتيب مما لم يذكره المؤلف مؤيدا بالآيات .

٥ - تخريج الأحاديث والآثار ، ورد أقوال المفسرين الى مصادرهما ، وكذلك أقوال العلماء ما أمكن ذلك . واثبات المصادر بأرقام أجزائها وصفحاتها .

٦ - ضبط الأعلام ، والتعريف بالمجهول منها .

٧ - وضع دراسة وافية للموضوع تناولت فيها عظمة القرآن ، وترتيبه النزولى والمصحفى ، وربطت بين الموضوعين ببيان الكثير من أسرار الترتيب التى لم يتعرض لها المؤلف ، فقد نظرنا الى الموضوع نظرة شاملة مرتبطة بحضارة الاسلام ، والاعتبارات النفسية والتربوية التى عنى بها القرآن ، واثبات الإعجاز القرآنى من خلال تلك الدراسة .

وهذا المنهج فى دراسة التراث قد اتبعته من قبل فى كتاب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) لأبى بكر الحلال ، واعتزمت بحول الله أن أتبعه فى كل ما أقوم بنشره ، حتى تتكامل الموضوعات ، ويفيد منها أكبر عدد ممكن من القراء والباحثين ، وحتى تحل مشكلة القصور فى أداء كتب التراث أهدافها كاملة ، فما كان لأهل القرون الماضية أن يدركوا ما سيجد بعد

عصورهم من قضايا الحياة حتى يعصموا المسلمين من آثارها ، وهو العمل
الذى قمنا به والحمد لله .

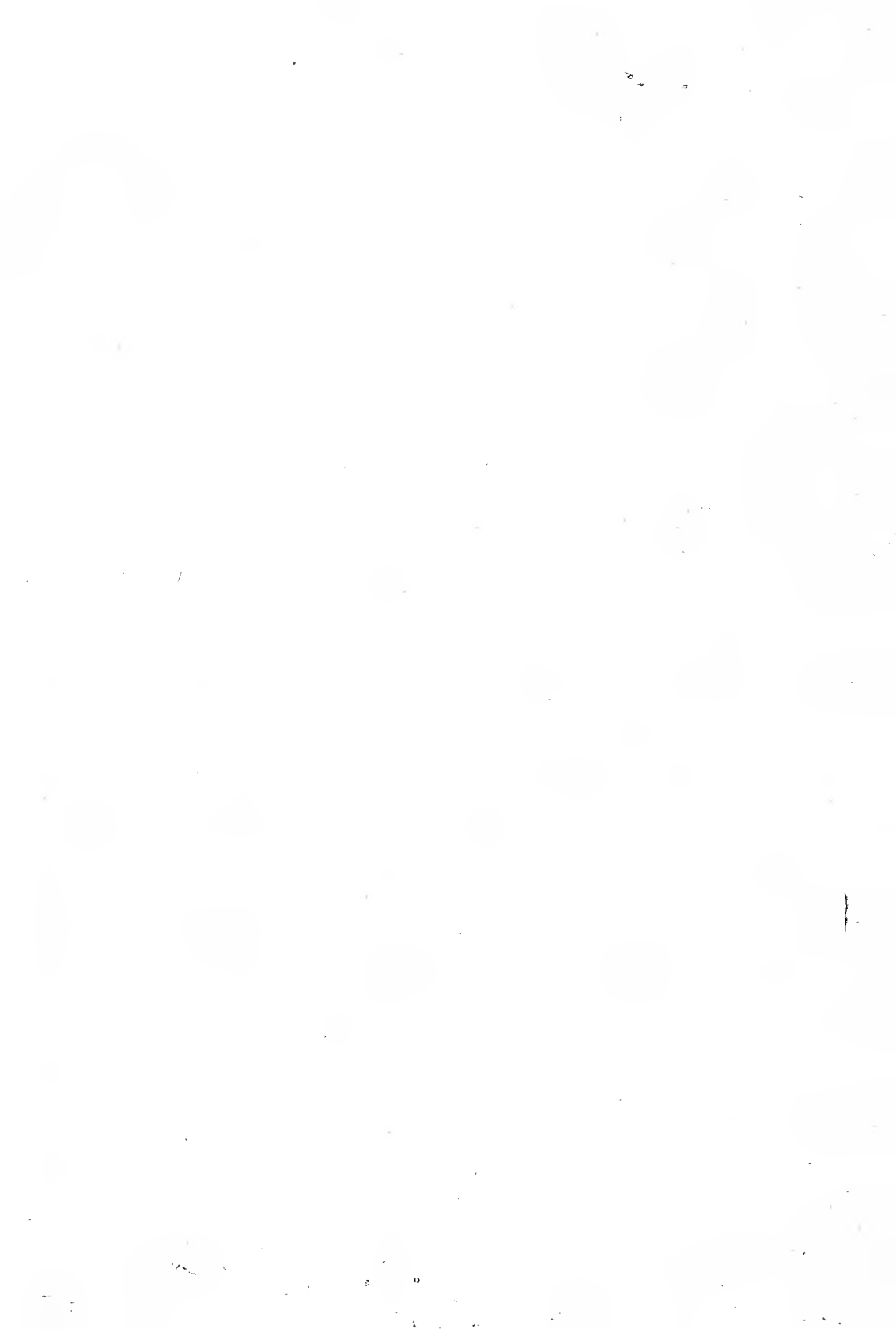
٨ - زدنا بعض كلمات أو جمل لتوضيح المعنى ، ووضعناها بين علامتين
هكذا (-) .

٩ - غيرنا عنوان الكتاب بما يتناسب مع العصر ، وبعدا عن الأسجاع
المألوفة فى عصر المؤلف .

والله نسال العون على المضى فى رسالتنا هذه ، وأن يمكن لنا من
أسباب خدمة كتابه الكريم ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن
يرزقنا الاخلاص له وحده فيه ، وأن ينفع به المسلمين ، وأن يجزى عنا نبينا
ورسولنا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ما هو أهله ، وأن يلحقنا بحزبه ،
انه سميع قريب مجيب .

القاهرة فى { شعبان ١٣٩٦ هـ
أغسطس ١٩٧٦ م

عبد القادر احمد عطا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى أنزل كتابه المجيد على أحسن أسلوب ، وبهر بمحسن أساليبه وبلاغة تركيبه القلوب ، نزله آيات بينات ، وفصله سوراً وآيات ، ورتبه بمحكمته البالغة أحسن ترتيب ، ونظمه أعظم نظام بأفصح لفظ وأبلغ تركيب ، صلى الله على من أنزل إليه ليندو به وذكرى ، ونزله على قلبه الشريف فننى عنه الحرج وشرح له صدراً ، وعلى آله وصحبه مهاجرة ونصراً . وبعد :

فإن الله سبحانه من على بالنظر فى مواقع نجومه ، وفتح لى أبواب النظر فيه إلى استخراج ما أودع فيه من علومه ، فلا أزال أسرّح النظر فى بساطينه من نوع إلى نوع ، وأستسرح^(١) الخاطر فى ميادينه فيبلغ الغرض ويرجع وهو يقول : لاروع ، فتفت^(٢) عن أنواع علومه ولقبته ، وأودعت ما أوعيت منها فى دواوين وأعيته ، وتقتب عن معادن معانيه وأبرزتها ، وأوقدت عليها نار القرينة وميزتها ، وألفت فى ذلك جامعاً ومفرداً ، ومطناً ومقصداً^(٣) ، ومن خلق لشيء فإلى تبسره ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره .

وإن مما ألفت فى تعلقات القرآن كتاب « أسرار التنزيل » الباحث عن أساليبه ، المبرز أعاجيبه ، المهيئ لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه ، الكاشف

(١) استسرح خاطرى : استفحصه . أى : أتأمل به متفحصاً .

(٢) فتفت من كذا : شققت عنه وكشفت عن سره .

(٣) مطناً من الإطناب ، وهو : التطويل . ومقصداً من القصد ، وهو : الاختصار .

عن وجه إعجازه ، الداخلى إلى حقيقته من مجازه ، المطلع على أفانيه ، للبدء فى تقرير حججه وبراهينه ، فإنه اشتمل على بضع عشرة نوعا .

الأول : بيان مناسبات ترتيب سورته ، وحكمة وضع كل سورة منها .

الثانى : بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل فى السورة التى قبلها .

الثالث : وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التى قبلها .

الرابع : مناسبة مطلع السورة للمقصد الذى سبقت له ، وذلك براعة الاستهلال .

الخامس : مناسبة أوائل السور لآواخرها .

السادس : مناسبات ترتيب آياته ، واعتلاق بعضها ببعض ، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها .

السابع : بيان أساليبه فى البلاغة ، وتنويع خطاباته وسياقاته .

الثامن : بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها ، كالمستعارة ، والسكنائية ، والتعريض ، والالتفات ، والتورية ، والاستخدام ، واللف والنشر ، والطباق ، والمقابلة ، وغير ذلك . والمجاز بأنواعه ، وأنواع الإيجاز والإطناب .

التاسع : بيان فواصل الآى ، ومناسبتها للآى التى ختمت بها .

العاشر : مناسبة أسماء السور لها .

الحادى عشر : بيان وجه اختيار مرادفاته دون سائر المرادفات .

الثانى عشر : بيان القراءات المختلفة ، مشهورها وشاذها ، وما تضمنته من المعانى والعلوم ، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه .

الثالث عشر : بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات فى القصص وغيرها بالزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير ، وإبدال لفظة مكان أخرى ، ونحو ذلك .

وقد أردت أن أفرد جزءاً لطيفاً في نوع خاص من هذه الأنواع ، هو :
مناسبات ترتيب السور ، ليكون عجالة لمريده ، وبغية لمستفيده ، وأكثره من
نتائج فكرى ، وولاد نظرى ، لقلة من تكلم في ذلك ، أو خاض في هذه
المسالك ، وما كان فيه لغيرى صرحت بعزوه إليه ، ولا أذكر منه إلا
ما استُحسن ، ولا انتقاد عليه ، وقد كنت أولاً سميت « نتائج الفكر في تناسب
السور » لكونه من مستنتاجات فكرى كما أشرت إليه ، ثم عدلت وسميته
« تناسق الدرر في تناسب السور » لأنه أنسب بالمسمى ، وأزيد بالجناس .

وبالله تعالى التوفيق ، وإياه أسأل حلاوة التحقيق ، بمنه وبمنه .

* * *

مقدمة

في ترتيب السور

اختلف العلماء في ترتيب السور ، هل هو بتوقيف من النبي ﷺ ، أو باجتهاد من الصحابة ، بعد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفي ، والقطع بذلك . فذهب جماعة إلى الثاني ، منهم : مالك ، والقاضي أبو بكر في أحد قوليه ، وجزم به ابن فارس .

ومما استدل به لذلك : اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول ، وهو مصحف علي ، كان أوله « اقرأ » ثم البواقى على ترتيب نزول المكي ، ثم المدني ، ثم كان أول مصحف ابن مسعود « البقرة » ثم « النساء » ثم « آل عمران » على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أبي بن كعب وغيره ، على ما بينته في الإتيان^(١) .

وفي المصاحف لابن أشته بسنده عن عثمان أنه أمرهم أن يتابعوا الطول^(٢) . وذهب جماعة إلى الأول ، منهم : القاضي أبو بكر في أحد قوليه ، وخلائق قال أبو بكر بن الأنباري : أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرقه في بضع

(١) انظر هذا الخلاف في المصاحف في الجامع لاحكام القرآن للقرطبي : ٥١/١ . والانتان : ٢١٦/١ وفيه أن ابن فارس يجزم بترتيب الطول والمئين والمفصل بالتوقيف . أما وضع كل مجموعة تلو الأخرى فمن الصحابة .

(٢) انظر الانتان : ٢١٦/١ . من طريق اسماعيل بن عياش إلى أبي محمد القرشي . واسماعيل فيه كلام (الضعفاء . من اسمه اسماعيل) . وابن أشته هو محمد ابن عبد الله بن أشته أحد العلماء بالمروية والقراءات ألف في المصاحف وشواذ القراءات توفي سنة ٣٠٦ (طبقات القراء : ١٨٤/٢) .

وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر ينزل ، والآية جواباً لمستخبر ، ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، فانساق السور كانساق الآيات والحروف ، كان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن^(١) .

وقال الكرماني في البرهان : ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ ، وهو على هذا الترتيب ، وكان يعرض النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل ما اجتمع لديه منه ، وعرضه صلى الله عليه وسلم في السنة التي توفي فيها مرتين^(٢) . وكذا قال الطيبي .

وقال ابن الحصار^(٣) : [ترتيب السور]^(٤) ، ووضع الآيات موضعها إما كان بالوحي .

وقال البيهقي في المدخل : كان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتباً سورة وآياته على هذا الترتيب ، إلا الأنفال وبراعة للحديث الآتي فيها : ومال ابن عطية إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ، صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال ، والحواميم ، والمفصل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى منها القليل يمكن أن يجري فيه الخلاف ، أقوله صلى الله عليه وسلم : « اقرأوا

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٦٠/١ وأسرار التكرار في القرآن ص ٢٣ . والانتقان : ٢١٧/١ .

(٢) الكرماني : محمود بن حمزة بن نصر . وكتابه « البرهان » : شرناه باسم « أسرار التكرار في القرآن » بدار الاعتصام بالقاهرة . انظر ص ٢٣ .

(٣) ابن الحصار وهو : علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم الخزرجي الأشجيلي . له مؤلفات منها : أصول الفقه ، والناسخ والمنسوخ ... توفي سنة ٦١١ هـ (التكملة لابن الأبار ٦٨٦) .

(٤) ما بين الحاميرين زدناه من الانتقان : ٢١٦/١

الزهرأوين البقرة وآل عمران . رواه مسلم^(١) . وكحديث سعيد بن خالد أنه صلى الله عليه وسلم صلى بالسبع الطوال في ركعة ، وأنه كان يجمع المفصل في ركعة . أخرجه ابن أبي شيبة^(٢) . وأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قرأ قل هو الله أحد ، والمعوذتين . أخرجه البخاري^(٣) وفيه عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنهن من العتاق الأول ، وهن من تлады »^(٤) .

وقال أبو جعفر النحاس : اختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحديث : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفُضِّلَ بالمفصل » . أخرجه أحمد وغيره^(٥) . قال : فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه من هذا الوقت هكذا .

وقال الحافظ ابن حجر : ترتيب معظم السور توقيفي ، لحديث أحمد وأبي داود عن أوس التقي قال : كنت في وفد ثقيف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طراً على حزبي من القرآن ، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه » . قال أوس : فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور ،

- (١) أخرجه مسلم في فضائل القرآن مطولاً عن أبي إمامة الباهلي : ١١٣/٢ . وأبو داود : ٨٨/١ ، مختصراً والهيتمي في مجمع الزوائد عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم بقرا البقرة وآل عمران والنساء : ٢٧٢/٢ وعزاه إلى أبي يعلى .
- (٢) حديث (السبع الطوال) أخرجه أيضاً الهيتمي في مجمع الزوائد : ١٦٢/٧ بلفظ (من أخذ السبع الطوال فهو خير) وعزاه للبزار واحد . وأخرج رواية أخرى ٢٧٤/٢ أنه قرأ السبع الطوال في ليلة .
- (٣) وحديث (كان يقرأ المفصل في ركعة) أخرجه مسلم في فضائل القرآن : ٢٠٤/٢ عن عبد الله بن مسعود مطولاً وفيه (عشرون سورة من المفصل في ركعة) . والبخاري في التفسير : ٢٤٠/٦ وفيه (ثلثي عشرة سورة من المفصل) .
- (٤) أخرجه البخاري في التفسير عن عائشة : ٢٢٣/٦ . والترمذي في التفسير : ٢٤٧/٦ ، ٢٤٨ بتحفة الإحوازي . وفيه أنه كان يجمع يديه ، وينثقب فيها ، ويقرأ ، ويمسح بها ما استطاع من جسده .
- (٥) أخرجه البخاري في التفسير : ١٨٩/٦ . والعناني : اللاتي نزلن قديماً بمكة . والتلاد : التقديم .
- (٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ١٢٤/٢ عن وائلة بن الأسقع . والهيتمي في مجمع الزوائد : ١٥٨/٧ وعزاه للطبراني أيضاً عن وائلة وأبي إمامة .

وخمس سور ، وسبع سور . وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة سورة ، وحزب المفصل ، من « ق » حتى نختم^(١) .

قال : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر من حكيم .

الأول : بحسب الحروف ، كما في الحواميم ، وذوات (ال) .

الثاني : لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها . كآخر الحمد في المعنى . وأول البقرة .

الثالث : الوزن في اللفظة . كآخر (تبت) وأول (الإخلاص) .

الرابع : لمساواة جملة السورة لجملة الأخرى ، كالضحى وألم نشرح .

وقال بعضهم : إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة التي قبلها ، ثم يخفى تارة ، ويظهر أخرى .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ربيعة : أنه سئل : لم قدمت البقرة وآل عمران . وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة . وإنما نزلنا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا ، وأُلف القرآن على علم ممن ألقه . وقد اجتمعوا على علمهم بذلك . فهذا مما ينتهي إليه . ولا يُسأل عنه^(٢) .

فإن قلت : فما عندك في ذلك ؟

قلت : الذي هندی أولاً : تحديد محل الخلاف ، وأنه خاص بترتيب سور

(١) أخرجه أبو داود : ١٤٠/١ وفيه (وحزب المفصل وحده) . والابن أحمد في المسند ٤٣/٥ . والحديث مضطرب في الأصل ، وصحناه من أبي داود .

(٢) نقل القرطبي في تفسيره : ٥٢/١ هذا الخبر ، وهواه إلى ابن وهب في جامعه والنص مضطرب في الأصل ، وقومناه من القرطبي .

الأقسام الأربعة ، وأما نفس الأقسام الأربعة ، من تقديم الطوال ، ثم المثني ، ثم المثاني ، ثم المفصل ، فهذا ينبغي أن يقطع بأنه توقيفي ، وأن يدهى فيه الإجماع ، وإن لم أر من سبقني إلى ذلك . وإنما دعاني إلى هذا أمران :

أحدهما : ما تقدم من الأحاديث قريبا ، وحديث ابن عباس الآتي في الأفعال .

والثاني : أن المصاحف التي وقع فيها الاختلاف في الترتيب اتفقت على ذلك ، فإن مصحف أبي بن كعب وابن مسعود كلاهما قدم فيه الطوال ، ثم المثاني ، ثم المفصل ، كمحصف عثمان ، وإنما اختلفا في ترتيب سور كل قسم كما ينت في الإتيان ^(١) .

فإذا تحرر ذلك ، ونظرنا إلى محل الخلاف ، فالتحتم عندى في ذلك : ما قاله البيهقي ، وهو : أن ترتيب كل السور توقيفي ، سوى الأفعال وبراعة .

ومما يدل على ذلك ويؤيده : توالى الحواميم ، وذوات (الر) ، والفصل بين المسبحات ، وتقديم (طس) على القصص ، مفصولا بها بين النظيرتين [طسم الشعراء ، وطسم القصص] في المطلع والطول ، وكذا الفصل بين الإنفطار والإشفاق بالمطففين ، وهما نظيرتان في المطلع والمقصد ، وهما أطول منها ، فلولا أنه توقيفي لحكمة لتوالى المسبحات ، وأخرت (طس) عن القصص ، وأخرت (المطففين) أو قدمت ، ولم يفصل بين (الر) و(الر) .

وليس هنا شيء أعارض به سوى اختلاف مصحف أبي وابن مسعود ، ولو كان توقيفيا لم يقع فيهما اختلاف ، كما لم يقع في [ترتيب] الآيات .

(١) الإتيان : ٢٢٢/١ — ٢٢٤ نقلا من ابن اشته في المصاحف من راويه أبي جعفر .

الكوفي وجريير بن عبد الحميد .

وقد من الله على بجواب لذلك نفيس ، وهو : أن القرآن وقع فيه النسخ كثيرا للرسم ، حتى لسور كاملة ، وآيات كثيرة ، فلا بدع أن يكون الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرصة الأخيرة ، كالقراءات التي في مصحفه ، ولم يبلغ ذلك أيما وابن مسعود ، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثماني ، ولذلك كتب أبي في مصحفه سورة الحفد ، والخلم ، وهما منسوختان ^(١) .

فالْحاصل أني أقول : ترتيب كل المصاحف بتوقيف ، واستقر التوقيف في العرصة الأخيرة على القراءات العثمانية ، ورتب أولئك على ما كان عندهم ، ولم يبلغهم ما استقر ، كما كتبوا القراءات المنسوخة المثبتة في مصاحفهم بتوقيف ، واستقر التوقيف في العرصة الأخيرة على القراءات المنسوخات ، ولم يبلغهم النسخ .

* * *

« سورة الفاتحة »

إفتتح مباحثه كتابه بهذه السورة ، لأنها جمعت مقاصد القرآن ، ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس ^(٢) . فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال .

قال الحسن البصري : إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن ،

(١) الاتقان : ٢٢٣/١ ، ٢٢٦ من ابن أشقة في المصاحف وهما سورتا القنوت في الوتر ، قال الحسين بن المنادي في كتابه الناسخ والمنسوخ : وبما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت في الوتر ، وتسمى بسورتى الخلع والحفد (الاتقان : ٨٥/٣) . وهي :

(اللهم انا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم اياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، واليك نسعى ونخمد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، ان عذابك الجد بالكفار ملحق وانظر (مجمع الزوائد : ١٢٠/٩) .

(٢) الكشف : ٤/١ بولاق . ومن أسمائها : السبع المثاني ، والقرآن العظيم ، والواقية ، والكنز (الاتقان : ١٨٩/١ - ١٩١) .

ثم أودع علوم القرآن في المفصل ، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة . فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان^(١) .

وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشري ، باشتمالها على الشئاء على الله بما هو أهله ، وعلى التبعيد ، والأمر والنهي ، وعلى الوعد والوعيد ، وآيات القرآن لا تخرج عن هذه الأمور^(٢) .

قال الإمام فخر الدين : المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة : الإلهيات ، والمعاد ، والنبوات ، وإثبات القضاء والقدر . فقوله : (الحمد لله رب العالمين) يدل على الإلهيات ، وقوله : (مالك يوم الدين) يدل على نفى الجبر ، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره . وقوله (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله ، وعلى النبوات ، فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة ، التي هي المقصد الأعظم من القرآن^(٣) .

وقال البيضاوي : هي مشتملة على الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على مراتب السعداء ، ومنازل الأشقياء^(٤) .

وقال الطيبي : هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين : أحدها : علم الأصول ، ومعاينة معرفة الله عز وجل وصفاته ، وإليها

(١) الشعب : ٢ ، ورقة ٨٧ أ . دار الكتب المصرية .
(٢) انظر : الكتاب : ٤/١ وفيه (التبعيد بالأمر والنهي) .
(٣) مفاتيح الغيب : ٦٥/١
(٤) تفسير البيضاوي : ٢٥/١ بحاشية الشهاب المخفاجي .

الإشارة بقوله : (رب العالمين • الرحمن الرحيم) . ومعركة المعاد ، وهو الموما إليه بقوله : (مالك يوم الدين) .

وثانيها : علم ما يحصل به الكمال ، وهو علم الأخلاق ، وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية ، والاتجاه إلى جناب الفردانية ، والسلوك لطريقة الاستقامة فيها ، وإليه الإشارة بقوله : (أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

قال : وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة ، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلا ، فإنها واقعة في مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سبق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحل على الإطلاق ^(١) .

وقال الغزالي في « خواص القرآن » : مقاصد القرآن ستة ، ثلاثة مهمة ، وثلاثة تنمة .

الأولى : تعريف المدهو إليه ، كما أشير إليه بصدورها ، وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها ، وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى ، وهو الآخرة ، كما أشير إليه بقوله : (مالك يوم الدين) .

والأخرى : تعريف أحوال المطيعين ، كما أشار إليه بقوله . (الذين أنعمت عليهم) . وتعريف منازل الطريق ، كما أشير إليه بقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) ^(٢) .

(١) الطيبي هو : الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي الإمام المشهور ، وأحد كبار علماء الحديث والتفسير واللغة . توفي عام ٧٤٣ هـ . انظر (الدر الكامنة لابن حجر : ١٥٦/٢ ، والبدر الطالع للشوكاني : ٢٢٩/١ . وبغية الوعاة للسيوطي : ٢٢٨ . وكلاهما هذا في شرح الكشاف له . مخطوط بالازهرية : ح ١ ورقة ٢٩ أ .

(٢) خواص القرآن الكريم ص ٣٧

« سورة البقرة »

قال بعض الأئمة : تضمنت سورة الفاتحة : الإقرار بالربوبية ، والالتجاء إليها في دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهود والنصارى ، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين ، وآل عمران مكملة لمقصودها .

فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم ، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ، ولهذا ورد فيها كثير من التشابه لما تمسك به النصارى .

فأوجب الحج في آل عمران ، وأما في البقرة فذكر أنه مشروع ، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه ^(١) . وكان خطاب النصارى في آل عمران ، كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر ، لأن التوراة أصل ، والإنجيل فرع لها ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم ، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر ^(٢) كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ، ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء ، فخطب به جميع الناس ، والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، فخطبوا بها أهل الكتاب ، يابني إسرائيل ، يا أيها الذين آمنوا .

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس ، وهي نوعان : مخلوقة لله ، ومقدورة لهم ، كالنسب والصهر ، ولهذا افتتحت بقوله : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) . وقال :

(١) وذلك في قوله تعالى : (واتوا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ١٩٦) الآية . من سورة البقرة .

(٢) ثبت في التاريخ أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاهد اليهود وأخرجهم من دار الإسلام ، ولم يحدث مثل ذلك للنصارى وإنما بدأت مجادلة إياهم بوجد نجران الذي تحدثت عنه سورة المائدة . وأخرج الهيثمي في مجمع الزوائد أنه قال لعلى : « يا على ، ان أنت وليت هذا الأمر بعدى ، فأخرج أهل نجران من جزيرة العرب » يريد النصارى (١٢٠/٩) .

(فأتقوا الله الذى تساعون به والأرحام) ^(١) فانظر إلى هذه المناجاة العجيبة ، والافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما فى أكثر السورة من أحكام : من نكاح النساء ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام ، وأن ابتداء هذا الأمر بخلق آدم ، ثم خلق زوجته منه ، ثم بث منهما رجلاً كثيراً ونساء فى غاية الكثرة .

أما المائدة فسورة العقود ، تضمنت بيان تمام الشرائع ، ومكملات الدين ، والوفاء بعهود الرسل ، وما أخذ على الأمة ، ونهاية الدين ، فهى سورة التكميل ، لأن فيها تحريم الصيد على المحرم ، الذى هو من تمام الإحرام . وتحريم الخمر ، الذى هو من تمام حفظ العقل والدين . وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين ، الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال وإحلال الطيبات ، الذى هو من تمام عبادة الله ، ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، والتميم ، والحكم بالقرآن على كل ذى دين . ولهذا كثر فيها لفظ الإكمال والإتمام ^(٢) . وذكر فيها : أن من ارتد عوض الله بغير منه ، ولا يزال هذا الدين كاملاً ، ولهذا ورد أنها آخر ما نزل ^(٣) لما فيها من إرشادات الختم والتمام . وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنية من أحسن الترتيب : انتهى .

وقال بعضهم : افتتحت البقرة بقوله : (ألم ذاك الكتاب لاريب فيه) ^(٤) فإنه إشارة إلى الصراط المستقيم فى قوله [فى الفاتحة] : (إهدنا الصراط المستقيم) . فإنهم لما سألوا [الله] الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم : ذلك الصراط الذى سألتهم الهداية إليه ، كما أخرج ابن جرير وغيره من حديث على

(١) وذلك فى قوله تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى) وأمثالها .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرک عن عائشة : ٣١١/٢ وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه والإمام أحمد فى المسند - عن معاوية بن صالح عن عائشة : ١٨٨/٦ .

مرقوما : « الصراط المستقيم كتاب الله » (١) . وأخرجه الحاكم في المستدرك
عن ابن مسعود موقوفاً (٢) .

وهنا معنى حسن يظهر فيه سر ارتباط البقرة بالفاتحة .
وقال الخوي (٣) : أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة ، لأن
الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ما طلبتم : هذا
الكتاب هدى لكم فاتبعوه ، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول .
ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكروا في
الفاتحة : فذكر الذين على هدى من ربهم ، وهم المنعم عليهم . والذين اشتروا
الضلالة بالهدى ، وهم الضالون : والذين باعوا بفضب من الله ، وهم المغضوب
عليهم (٤) . انتهى .

أقول : قد ظهر لي بحمد الله وجوهاً من هذه المناسبات :
أحدها : أن القاعدة التي استقر بها القرآن : أن كل سورة تفصيل لإجمال
ما قبلها ، وشرح له ، وإطناب لإيجازه . وقد استقر معي ذلك في غالب سور
القرآن ، طويلاً وقصيراً . وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع
مجملات الفاتحة .

فقوله : (الحمد لله) . تفصيله : ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات
ومن الدعاء في قوله : (أجيب دعوة الداع إذا دعان) (١٨٦) الآية . وفي
قوله : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما
حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا

(١) أخرجه ابن جرير عن علي من حديث حمزة الزيات . جامع البيان : ١٧٢/١
المستدرك : ٨٣/٤
(٢) هو أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر أبو العباس . توفي بدمشق عام ٦٢٧ انظر
عيون الأنباء : ١٧١/٢ ، شذرات الذهب : ٢٥/٣ .
(٣) فكر السيوطي : أن للخوي تفسيراً نقل عنه في الانتان (٧/٢ ، ١٢ ، ٢٩/٣ و
١٤٤/٤) ولم نغفر عليه ، ولعل هذا النقل منه .

وارحنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (٢٨٦) . وبالشكر في قوله : (فاذا كروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) (١٥٢) .

وقوله : (رب العالمين) تفصيله قوله : (اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) (٢١ ، ٢٢) . وقوله : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) (٢٩) . ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر ^(١) ، وهو أشرف الأنواع من العالمين ، وذلك شرح لإجمال (رب العالمين) .

وقوله : (الرحمن الرحيم) . قد أوماً إليه بقوله في قصة آدم : (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) (٥٤) . وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة [بقوله : (وارزق أهلهم من الثمرات من آبن) (١٢٦)] . فقال : (ومن كفر فأمتعه قليلاً) (١٢٦) .

وذلك لكونه رحماناً . وما وقع في قصة بني إسرائيل : (ثم عفونا عنكم) (٥٢) . إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله : (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) (١٦٣) . وذكر آية الدين ^(٢) إرشاداً للطالبيين من العباد ، ورحمة بهم . ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر وما لا طاقة لهم به ، وختم بقوله : (واعف عنا واغفر لنا وارحنا) (٢٨٦) . وذلك شرح قوله : (الرحمن الرحيم) .

(١) وذلك في قوله : (واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) الى قوله : (فنفخنا فيه من ربه كلمات فتاب عليه - « ٢٠ - ٢٧ » .

(٢) هي قوله : (يا ايها الذين آمنوا اذا تدابرتم بينكم الى اجل يمسي فاكثبوه - ٢٨٢) الآية .

وقوله : (مالك يوم الدين) . تفصيله : ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع ، ومنها قوله : (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله « ٢٨٤ » . والدين [في الفاتحة] : الحساب [في البقرة] .

وقوله : (إياك نعبد) مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية ، وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل ، فذكر فيها : الطهارة ، والحیض ، والصلاة ، والاستقبال ، وطهارة المكان ، والجماعة ، وصلاة الخوف ، وصلاة الجمع ، والعید ، والزكاة بأنواعها ، كالنبات ، والمعادن ، والاعتكاف ، والصوم وأنواع الصدقات ، والبر ، والحج ، والعمرة ، والبيع ، والإجارة ، والميراث والوصية ، والرديعة ، والنكاح ، والصداق ، والطلاق ، والخلع ، والرجعة والإيلاء ، والعدة ، والرضاع ، والنققات ، والقصاص ، والديات ، وقتال البغاة والردة ، والأشربة ، والجهاد ، والأطعمة والذبائح ، والأيمان ، والنذور ، والقضاء ، والشهادات ، والعق .

فهذه أبواب الشريعة كلها مذكورة في هذه السورة .

وقوله : (وإياك نستعين) . شامل لعلم الأخلاق . وقد ذكر منها في هذه السورة الجمل الغفير ، من التوبة ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتفويض ، والذكر ، والمراقبة ، والخوف ، وإلانة القول .

وقوله : (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخره . تفصيله : ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء ، ومن حاد عنهم من النصارى ، ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم ، فهي من صراط الذين أنعم عليهم ، وقد حاد عنها اليهود والنصارى . وما ، ولذلك قال في قصتها : (يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) « ١٤٢ » . فتنبها على أنها الصراط الذى سألوا الهداية إليه .

ثم ذكر : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) (١٤٥) . وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم .
ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم . ثم قال : (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) (٢١٣) . فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة .

وأيضاً قوله أول السورة : (هدى للمتقين) (٢) إلى آخره في وصف الكتاب ، إخبار بأن الصراط الذي سألوا الهداية إليه هو : ما تضمنه الكتاب ، وإنما يكون هداية لمن انصف بما ذكر [من صفات للمتقين] . ثم ذكر أحوال الكفرة ، ثم أحوال المنافقين ، وهم من اليهود ، وذلك تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم ، ولم يهتد بالكتاب ^(١) .

وكذلك قوله هنا : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) (١٣٦) . الآية . فيه تفصيل النبيين للنعم عليهم . وقال في آخرها : (لانفرق بين أحد منهم) (١٣٦) . تعريفاً بالمغضوب عليهم والضالين الذين فرقوا بين الأنبياء . ولذلك عقبها بقوله : (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) (١٣٧) . أى : إلى الصراط المستقيم ، صراط للنعم عليهم كما اهتديتم .

فهذا ما ظهر لى ، والله أعلم بأسرار كتابه .

الوجه الثانى : أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود ،

(١) هذا تفصيل للصراط المستقيم عن طريق التبصير بأعداء الصراط المستقيم ، والتحذير منهم على وجه التفصيل . وسيأتى تفصيل للصراط المستقيم في آل عمران عن طريق التبصير بالعوائق النفسية التى تحول دون الإنسان وسلوك الصراط المستقيم باعتبار النفس عدواً للإنسان . وبهذا تظهر عظيمة الأسلوب القرآنى في الإجمال والتفصيل ، وفي استيعابه كل شيء .

والضالين بالنصارى^(١) ، وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان ، فعقب بسورة البقرة ، وجميع ما فيها [من] خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب^(٢) .

ثم [هقبت البقرة] بسورة آل عمران ، وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى ، فإن ثمانين آية من أولها نازلة في وفد نصارى نجران ، كما ورد في سبب نزولها^(٣) وختمت بقوله : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) (١٩٩) . وهى في النجاشى وأصحابه من مؤمنى النصارى ، كما ورد به الحديث^(٤) . وهذا وجه بديع في ترتيب السورتين ، كأنه لما ذكر في الفاتحة الفريقين ، قص في كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها ، ولهذا كان صدر سورة النساء في ذكر اليهود ، وآخرها في ذكر النصارى^(٥) .

الوجه الثالث : أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ، ولهذا سميت في أثر : فسطاط القرآن^(٦) . الذى هو : للمدينة الجامعة ، فناسب تقديمها على جميع سوره .

الوجه الرابع : أنها أطول سورة في القرآن ، وقد افتتح بالسبع الطوال^(٧) ، فناسب البداية بأطولها .

- (١) أخرج أحمد في مسنده : ٣٧٨/٤ والترمذى : ٢٨٦/٨ — ٢٨٨ بتحفة الاحوذى تفسير النبى صلى الله عليه وسلم للمفسوب عليهم والضالين باليهود والنصارى من عدى بن حاتم . وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤٦/١ .
- (٢) وانما جاء على أسلوب الخبر ، كقوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصبيين والنصارى من آمن بالله واليو الآخر — (٦٢) . وقوله : (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى — (١١١) الآية .
- (٣) انظر تفسير القرآن العظيم : (٤٠/٢) لمعرفة سبب النزول ، وقصة وفد نجران في (سيرة ابن هشام : ٥٧٢/١) وما بعدها .
- (٤) في اسلام النجاشى . انظر البخارى في الجنائز : ١٠٨/٢ . ومسلم في الجنائز : ٥٤/٣ ، ٥٥ . وانظر تفسير الطبرى : ٤٩٦/٧ .
- (٥) وذلك قوله في النساء : (من الذين هادوا يحرمون الكلم عن مواضعه — (٤٦) وما بعدها . وآخرها قوله : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله — (١٧١) الآية .
- (٦) أخرجه الدارى : ٤٤٦/٢ من خالد بن معدان .
- (٧) السبع الطوال هى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والاعتماد ، والامراف ويونس ، وسبب وضع الاتفال والتوبة بينها .

الوجه الخامس : أنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فناسب البدعة بها ، فإن للأولية نوعاً من الأولوية .

الوجه السادس : أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً ، ختمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم في المأخذة بالخطأ والنسيان ، وحمل الإصر ، وملا طاقة لهم به تفصيلاً ، وتضمن آخرها أيضاً الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله : (لا نفرق بين أحد منهم) (٢٨٥) فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع ، وذلك من وجوه المناسبة في التتالي والتناسق . وقد ورد في الحديث التأمين في آخر سورة البقرة كما هو مشروع في آخر الفاتحة ^(١) ، فهذه ستة وجوه ظهرت لي ، والله الحمد والمنة .

« سورة آل عمران »

قد تقدم ما يؤخذ منه مناسبة وضعها .

قال الإمام : لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة ، وكل كلمة لها ، افتتحت بتقرير ما افتتحت به تلك ، وصرح في منطوق مطلعها بما طوى في مفهوم تلك ^(٢) .

وأقول : قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات .

أحدها : مراعاة القاعدة التي قررتها ، من شرح كل سورة لإجمال ما في السورة قبلها ، وذلك هنا في هذه مواضع .

(١) كان معاذ بن جبل يقول : (آمين) آخر البقرة كما أخرج عنه ابن جرير . رواه ويصح من سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن رجل ، عن معاذ . (تفسير ابن كثير ٥٠٩/١) .

(٢) مفهوم مطلع البقرة : الدعوة إلى الإيمان بالله في قوله : (الذين يؤمنون بالغيب) . وهو مصرح به في مطلع هذه بقوله (الله لا اله الا هو الحي القيوم) (٢) .

منها : «أشار إليه الإمام ، فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه . وقال في آل عمران : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه) (٣) : وذلك بسط وإطناب ، لنفي الريب عنه .

ومنها : أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجلداً ، وقسمه هنا إلى آيات محكمات ، ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله (١) .

ومنها : أنه قال في البقرة : (وما أنزل من قبلك) (٣٥) ، وقال هنا : (وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) (٣ ، ٤) مفصلاً . وصرح بذكر الإنجيل هنا ، لأن السورة خطاب للنصارى ، ولم يقع التصريح به في سورة البقرة بطولها ، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة ، لأنها خطاب لليهود .

ومنها : أن ذكر القتال وقع في سورة البقرة مجلداً بقوله : (وقتلوا في سبيل الله) (١٩٠ ، ٢٤٤) [وقوله] : (كتب عليكم القتال) (٢١٦) . وفصلت هنا قصة أخذ بكاملها (٢) .

ومنها : أنه أوجز في البقرة ذكر للمقتولين في سبيل الله بقوله : (أحياء ولكن لا تشعرون) وزاد هنا : (عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضلة ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) (١٧٠) . الآيتين . وذلك إطناب عظيم .

ومنها : أنه قال في البقرة : (والله يؤتي ملكه من يشاء) (٢٤٧) . وقال هنا : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) (٢٦) . فزاد إطناباً وتفصيلاً .

(١) وفلك قوله : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات — (٧) الآية

(٢) وذلك في قوله : (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه — (١٥٢) إلى ولئن كنتم أولي العقول فما كان لأهل الكتاب منكم من شيء — (١٥٨) .

ومنها : أنه حذر من الربا في البقرة ، ولم يرد على لفظ الربا إيجازاً (١) .
وزاد هنا [قوله] . (أضعافاً مضاعفة) (١٣٠) . وذلك بيان وبسط .

ومنها : أنه قال في البقرة : (وأتموا الحج) (١٩٦) ، وذلك إيماء على الوجوب إجمالاً . وفصله هنا بقوله : (والله على الناس حج البيت) (٩٧) ، زاد : بيان شرط الوجوب بقوله : (من استطاع إليه سبيلاً) (٩٧) . ثم زاد : تسخير من جحد وجوبه بقوله : (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) (٩٧) .

ومنها : أنه قال في البقرة في أهل الكتاب : (ثم توليتهم إلا قليلاً منكم) (٨٣) . فأجل القليل . وفصله هنا بقوله : (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) (١١٣) . الآيتين .

ومنها : أنه قال في البقرة : (قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون) (١٩٣) . فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضاً لا تصريحاً وكذلك قوله : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) (١٤٣) . في تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إيهام ، وأتى في هذه بصريح البيان فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (١١٠) . فقوله : (كنتم) . أصرح في قدم ذلك من (جعلناكم) . ثم زاد وجه الخيرية بقوله : (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١١٠) . (٢)

(١) وثبت في قوله : (الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) — (٢٧٥) ، (يحق الله الربا ويرى الصدقات) — (٢٧٦) .

(٢) ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران : أن الصراط المستقيم ذكر مجلداً في الفاتحة ، ثم عينه في أول البقرة بقوله : (ذلك الكتاب) . ثم عين طريق السير عليه في آل عمران بقوله : (ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) — (١٠١) .

ثم فصل وسيلة الاعتصام بالله ، بالاعتصام بجبل الله ، فلما كان الصراط المستقيم دقيقاً جداً ، ويحتاج السائر عليه إلى غاية البقطة ، حث الله على الاعتصام بكتاب الله ، ونسأه حبلاً ليناسب الصراط الدقيق ، حيث يحس السائر عليه من الزلل . وحذر من الفرقة ، ودعا إلى التذكر الدائم من طريق الأبر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعتبر بمثابة التعليم الدائم ، وتصحيح الأخطاء الناشئة من الهوى . وانظر لزيادة البيان (نظم الدرر للبقاوى الجزء الأول ورقة : ١٧٧ ، ب) .

ومنها : أنه قال في البقرة : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام) « ١٨٨ » . الآية . وبسط الوعيد هنا بقوله : (إن الذين يشتركون بهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) « ٧٧ » . الآية ، وصدده بقوله : (وإن من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) « ٧٥ » .

فهذه عدة مواضع وقعت في البقرة مجملة ، وفي آل عمران تفصيلها . الوجه الثاني : أن بين هذه السورة وسورة البقرة اتحاداً ، وتلاحماً كذا ، لما تقدم من أن البقرة بمنزلة لإزالة الشبهة ، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب : من إنزال الكتاب ، وتصديقه للكتب قبله ، والهدى إلى الصراط المستقيم . ^(١) وتكررت هنا آية : (قولوا آمنا بالله وما أنزل) « ١٣٦ » ، بكاملها ، ولذلك أيضاً ذكر في هذه ما هو تال لما ذكر في تلك ، أو لازم في تلك ، أو لازم له .

فذكر هناك خلق الناس ، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام ^(٢) . وذكر هناك مبدأ خلق آدم ، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده ^(٣) . والطف من ذلك : أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم ، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب ، وهو عيسى عليه السلام ^(٤) ، ولذلك ضرب له المثل

(١) وذلك قوله في أول آل عمران : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان - (٤٤٣) .

(٢) وذلك قوله : (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو - (٦) .

(٣) خلق آدم في البقرة في قوله : (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة - (٣٠) وخلق أولاده في آل عمران في قوله : (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء - (٦) .

(٤) وذلك قوله : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون - (٥٩) .

بآدم ، واختصت البقرة بآدم ، لأنها أول السور ، وآدم أول في الوجود وصابق ،
ولأنها الأصل ، وهذه كالفرع والتممة لها ، فمختصة بالإهراب [والبيان] .

ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا ، وأنكروا وجود ولد
بلا أب ، ففوتحوا بقصة آدم ، لتثبت في أذهانهم ، فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد
ذكر عندم ما يشبهها من جنسها .

ولأن قصة عيسى قيسست على قصة آدم في قوله : (كمثل آدم) (٥٩) ،
الآية ، والمقيس عليه لا بد وأن يكون معلوما ، لتتم الحجة بالقياس ، فكانت
قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرة بالتقدم .

ومن وجوه تلازم السورتين : أنه قال في البقرة في صفة النار : (أهدت
للكافرين) (٢٤) ، ولم يقل في الجنة : أعدت للمتقين ، مع افتتاحها بذكر
المتقين والكافرين معاً^(١) ، وقال ذلك في آخر آل عمران في قوله : (جنة
عرضها السموات والأرض أهدت للمتقين) (١٣٣) . فكان السورتين بمنزلة
سورة واحدة .

وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم النساء عليها .
وأمر آخر استقرأته ، وهو : أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد ،
فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفتحة الأولى للدلالة على الاتحاد .
وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسب لأولها . وآخر
آل عمران مناسب لأول البقرة ، فإنها افتتحت بذكر المتقين ، وأنهم المفلحون ،
وختمت آل عمران بقوله : (واتقوا الله لعلكم تفلحون) (٢٠٠) .

(١) وذلك قوله في البقرة : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .
ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذهم لا يؤمنون - (٥ ، ٦) .

وافتحت البقرة بقوله : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) « ٤ » وختم آل عمران بقوله : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) « ١٩٩ » . فله الحمد على ما ألهم .

وقد ورد أنه لما نزلت : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) « ٢٤٥ : ٢ » . قال اليهود : يا محمد ، افتقر ربك ، فسأل القرض عباده ، فنزل قوله : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) « ١٨١ : ٣ » ^(١) . فذلك أيضاً من تلازم السورتين .

ووقع في البقرة حكاية عن إبراهيم : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) « ١٢٩ » الآية . ونزل في هذه : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم) « ١٦٤ » . وذلك أيضاً من تلازم السورتين .

« سورة النساء »

تقدمت وجوه مناسبتها . ٧٦

وأقول : هذه السورة أيضاً شارحة لبقية مجلات سورة البقرة .

فمنها : أنه أجل في البقرة قوله : (اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) « ٢١ » . وزاد هنا : (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) « ١٢ » .

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير : ٤٤٢/٧ . وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وانظر لما كانت آية التقوى في سورة البقرة غاية ، جعلها في أول هذه
السورة التالية لها مبدأ .^(١)

ومنها : أنه أجل في سورة البقرة : (أسكن أنت وزوجك الجنة) (٣٥) .
وبين هنا أن زوجته خلقت منه في قوله ، (وخلق منها زوجها) (١) .

ومنها : أنه أجل في البقرة آية اليتامى ، وآية الوصية ، واليُراث ، والوارث ،
في قوله : (وعلى الوارث مثل ذلك) (٢٣٣) . وفصل ذلك في هذه السورة
أبلغ تفصيل .^(٢)

وفصل هنا من الأنكحة ما أجمله هناك ، فإنه قال في البقرة : (ولأمة مؤمنة
خير من مشركة) (٢٢١) فذكر زكاح الأمة إجمالا ، وفصل هنا شرطه^(٣) .

ومنها : أنه ذكر الصداق في البقرة مجلا بقوله : (ولا يحل لكم أن
تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) (٢٢٩) . وشرحه هنا مفصلا^(٤) .

ومنها : أنه ذكر هناك الخلع ، وذكر هنا أسبابه ودواعيه ، من النشوز
وما يترتب عليه ، وبعث الحكيم^(٥) .

-
- (١) آية التقوى في البقرة هي : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين — (٢))
وهي غاية ، لأن الهداية بالكتاب وبآياته لا تكون الا للمتقين ، فالنقوى غاية
الهداية . أما في سورة النساء فقد بدأ الله الأمر بها في قوله : (انتقوا ربكم
الذي خلقكم من نفس واحدة — (١) الآية . وبين وسائل تحقيقها في نفس الآية .
(٢) وذلك في الآيات (٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٣ ، ١٧٦) من سورة النساء .
(٣) وذلك في قوله : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمأبىة
أيمانكم من فتياتكم المؤمنات — (٢٥) الآية .
(٤) وذلك في قوله تعالى : (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم أحداهن
مما كنتم علىهن فليكن منكم ميثاقا غليظا (٢٠ ، ٢١) .
(٥) قال عن الخلع في البقرة : (فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيها
اعتدث به — (٢٢٩) الآية . وهنا قال : (الرجال قوامون على النساء) إلى
(وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها (٣٤ / ٣٥) .
وهذا في أسباب الخلع .

ومنها : أنه فصل هنا من أحكام المجاهدين ، وتفضيلهم درجات ، والهجرة ،
ما وقع هناك مجالا ، أو مرموزا^(١) .

وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة : تفسير : (الذين أنعمت عليهم) .
بقوله : (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) « ٦٩ » .

وأما وجه اعتلاقها بآل عمران فمن وجوه :

منها : أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وافتتحت هذه السورة
به^(٢) . وهذا من أكبر وجوه للناسبات في ترتيب السور ، وهو نوع من البديع
يسمى : تشابه الأطراف .

ومنها أن سورة آل عمران ذكر فيها قصة أحد مستوفاة ، وذكر في هذه
السورة ذيلها ، وهو قوله : (فما لكم في المنافقين فئتين) « ٨٨ » .
فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين من غزوة أحد ،
كما في الحديث^(٣) .

ومنها : أن في آل عمران ذكرت الغزوة التي بعد أحد بقوله : (الذين
استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم الفرح) « ١٧٢ »^(٤) . وأشار إليها

(١) قال هنا : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في
سبيل الله) إلى (وكان الله عفورا رحيبا - (٩٥ - ٩٩) . وقال هناك :
(ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتا بل أحياء (١٥٤) الآية . (كتب عليكم
القتال وهو كره لكم (٢١٦) الآية . (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في
سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله (٢١٨) الآية .

(٢) ختمت آل عمران بقوله : (واتقوا الله لعلمكم تفلحون) . وافتتحت النساء
بقوله : (واتقوا الله الذي تساطعون به والأرحام) الآية

(٣) أخرجه البخاري في التفسير : ٥٩/٦ عن زيد بن ثابت . ومسلم في المنافقين :
١٢٨/٨ . واحمد في المسند : ١٨٤/٥ . وفيه : ان الصحابة اختلفوا فيمن رجع
عن غزوة أحد ، فقال فريق : يقتلهم . وقال فريق : لا . فنزلت .

(٤) هو يوم حراء الأسد ، كان عقب أحد ، وكان الكفار قد ندبوا أن لم يدخلوا
المدينة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فندب المسلمين للخروج
على ما بهم من جراح ، ليريههم أن بهم قوة وجلدا . انظر البخاري : ١٢٠/٥ .
والمستدرک : ٢٦٨/٢ وسيرة ابن هشام : ١٠١/٢ .

هنا بقوله : (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأملون فإنهم يأملون كما تأملون) (١٠٤) الآية (١).

وبهذين الوجين عرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها في مصحف ابن مسعود ، لأن المذكور هنا ذيل مافي آل عمران ، ولاحقه وتابعه ، فكانت بالتأخير أنسب .

ومنها : أنه ذكر في آل عمران قصة خلق عيسى بلا أب ، وأقيمت له الحجة بآدم ، وفي ذلك تبرئة لأمه ، خلافا لما زعم اليهود ، وتقرير لعبوديته ، خلافا لما ادعته النصارى ، وذكر في هذه السورة الرد على الفريقين معاً : فرد على اليهود بقوله : (وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) (١٥٦) . وعلى النصارى بقوله : (لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) إلى قوله : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) (١٩١ - ٢٧١) .

ومنها : أنه لما ذكر في آل عمران : (إني متوفيك ورافعك إلی) (٥٥) . رد هنا على من زعم قتله بقوله : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه) (١٥٧ - ١٥٨) .

ومنها : أنه لما قال في آل عمران في المتشابهة (٢) : (والراغبون في العلم

(١) ومن أسرار الترتيب أنه تعالى زاد في سورة محمد تفصيل سبب التهي عن الوهن في قوله : (ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأملون إن كنتم مؤمنين) (٣٥) .
هناك واقعة خاصة ، وهذا عام في قانون الحرب .

(٢) المتشابهة في القرآن يأتي على معنيين : أولهما المتماثل في اللفظ ، وهو غير مراد هنا ، والثاني ما جاء مؤكداً للواجبات بأصله ، راداً بوصفه ، فتشابه على السماع عليه من حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه (الأبد الأتقى ورقة . (١٢٠) .

يقولون آمناب به كل من عند ربنا) (٧). قال هنا: (لكن الراسخون في العلم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك) (١٦٢) الآية .

ومنها أنه لما قال في آل عمران: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) (١٤) الآية . فصل هذه الأشياء في السورة التي بعدها على نسق ما وقعت في الآية ، ليعلم ما أحل الله من ذلك فيقتصر عليه ، وما حرم فلا يتعدى إليه ، لميل النفس إليه .

فقد جاء في هذه السورة أحكام النساء ، ومباحاتها^(١) ، للابتداء بها في الآية السابقة في آل عمران ، ولم يحتج إلى تفصيل البنين ، لأن تحريم البنين لازم ، لا يترك منه شيء كما يترك من النساء ، فليس فيهم مباح فيحتاج إلى بيانه ، ومع ذلك أشير إليهم في قوله : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً) (٩) .

ثم فصل في سورة المائدة أحكام السراق ، وقطاع الطريق^(٢) ، لتعلقهم بالذهب والفضة الواقمين في الآية بعد النساء والبنين . ووقع في سورة النساء إشارة إلى ذلك في قصة المواريث .

ثم فصل في سورة الأنعام أمر الحيوان والحرث ، وهو بقية المذكور في آية آل عمران . فانظر إلى هذه اللطيفة التي من الله بإلهامها !

ثم ظهر لي أن سورة النساء فصل فيها ذكر البنين أيضاً ، لأنه لما أخبر بحب الناس لهم ، وكان من ذلك إشارتهم على البنات في الميراث ، وتخصيصهم به دونهن ،

(١) وذلك من قوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء) إلى قوله : (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً — (٢٢ — ٢٧) .

(٢) وذلك في قوله : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا (٢٣) الآية .

تولى قسمة الموارث بنفسه، فقال: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) (١١). وقال: (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب) (٧). فرد على ما كانوا يصنعون من تخصيص البنين بالميراث، لحبهم لهم، فكان ذلك تفصيلا لما يحل ويحرم من إيثار البنين، اللازم عن الحب، وفي ضمن ذلك تفصيل لما يحل للذكر أخذه من الذهب والفضة، وما يحرم. ومن الوجوه المناسبة لتقدم آل عمران على النساء: اشتراكهما مع البقرة في الافتتاح بإزالة الكتاب، وفي الافتتاح: (الم) وسائر السور المفتحة بالحروف المقطعة كلها مقترنة، كيونس وتوالياها، ومريم وطه، والطواسين، و (الم) للعنكبوت وتوالياها، والحواميم، وفي ذلك أول دليل على اعتبار المناسبة في الترتيب بأوائل السور.

ولم يفرق بين السورتين من ذلك بما ليس مبدوعا به سوى بين الأعراف ويونس اجتهدا لا توقيفا، والفصل بالزمر بين (حم) غافرو (ص) وميائى. ومن الوجوه في ذلك أيضا: اشتراكهما في التسمية بالزهاوين في حديث: «اقرأوا الزهاوين: البقرة وآل عمران». فكان افتتاح القرآن بهما نظير اختتامه بسورتي الفلق والناس، المشتركين في التسمية بالمعوذتين.

« سورة المائدة »

وقد تقدم وجه في مناسبتها.

وأقول: هذه السورة أيضا شارحة لبقية مجلدات سورة البقرة، فإن آية الأطعمة والذبائح فيها أبسط منها في البقرة^(١). وكذا ما أخرجه الكفار تبعاً

(١) قال تعالى هنا: (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) الى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) - (٣ - ٥). أما في البقرة فلم يكن هذا التفصيل، إذ قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم). ثم قال: (إنها حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ممن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه) - (١٧٢ - ١٧٣).

لآبائهم في البقرة موجز^(١) وفي هذه السورة مطلب أبلغ إطناب في قوله :
(ماجل الله من بحيرة ولا سائبة) (١٠٣، ١٠٤) .

وفي البقرة ذكر القصاص في القتل^(٢) . وهنا ذكر أول من من القتل ،
والسبب الذي لأجله وقع ، وقال : (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه
من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن
أحيها فكأنما أحيانا جميعا (٣٢) . وذلك أبسط من قوله [في البقرة] :
(ولكم في القصاص حياة) (١٧٩)

وفي البقرة : (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) (٥٨) . وذكر في قصتها
هنا : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) (٥٤) .

وفي البقرة قصة الأيمان موجزة ، وزاد هنا بسطا بذكر الكفارة^(٣) .
وفي البقرة قل في الخمر والميسر : (فيها إنم كبير ومنافع للناس وإمهما
أكبر من نفعهما) (٢١٩) . وزاد في هذه السورة ذمها ، وصرح بتحريمها^(٤) .
وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة : بيان المغضوب عليهم والضالين في

(١) في البقرة : (يا أيها الناس كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان
— (١٦٨) .

(٢) من دلائل الترتيب أنه قال : (كتب عليكم القصاص في القتل) في البقرة (١٧٨) .
ثم زاده بيانا في نفس السورة فقال : (ولكم في القصاص حياة (١٧٩) . ثم قال :
(والحرمت قصاص (١٩٤) . ثم ذكر قتل الخطأ والنسيان في النساء فقال : (ومن
قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة (٩٢) . وزاد تفصيل القصاص فيها ساقه المؤلف
في الآية (٣٢) المائدة . ثم فصل أحكام القصاص في قوله : (وكتبنا عليهم فيها
أن النفس بالنفس والعين بالعين والآن بالأنف بالأنف والسن بالسن والجروح
تصاص . (٥) المائدة) .

وهذا تدرج بديع يدل على أحكام الترتيب والتلاحم .

(٣) قال هنا : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان
فكفارته اطعام عشرة مساكين — (٨٩) .
وقال في البقرة : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت
نلوبكم والله غفور حلیم (٢٢٥) .

(٤) في هذه السورة قال تعالى : (انما الخمر والميسر والانتصاب والالزام رجس من
عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة
والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله (٩٠ ، ٩١) الآية .

قوله : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وخضبه عليه)
(٦٠) . الآية . وقوله : (قد ضلوا من قبل وأضلوا عن سواء السبيل) (٧٧) .

وأما اعتلائها بسورة النساء ، فقد ظهر لى فيه وجه بديع جدا . وذلك أن
سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحة وضمنا ، فالصريح : عقود الأنكحة ،
وعقد الصداق ، وعقد الحلف ، فى قوله : (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم
نصيبهم) (٣٣) . وعقد الأيمان فى هذه الآية . وبعد ذلك عقد للمعاهدة والأمان
فى قوله : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) (٩٠) . وقوله :
(وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية) (٩٢) .

والضمنى : عقد الوصية ، والوديعة ، والوكالة ، والعارية ، والإجارة ، وغير
ذلك من الداخل فى عموم قوله : (إن الله يأمرم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)
(٥٨) . فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود . فكانه قيل
[فى المائدة] : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (١) ، التى فرغ من ذكرها
فى السورة التى تمت . فكان ذلك غاية فى التلاحم والتناسب والارتباط .

ووجه آخر فى تقديم سورة النساء ، وتأخير سورة المائدة ، وهو : أن تلك
أولها : (يا أيها الناس) (١) ، وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهو أشبه
بخطاب المكي ، وتقديم العام ^(١) وشبه المكي أنسب .

ثم إن هاتين السورتين [النساء والمائدة] فى التقديم والاتحاد نظير البقرة
وآل عمران ، فتلكما فى تقرير الأصول ، من الوحداية ، والكتاب ، والنبوة .
وهاتان فى تقرير الفروع الحكيمية .

(١) يريد بالعام : الخطاب بها إلى الناس ، فهو أعم من : (يا أيها الذين آمنوا) .
أو (يا أهل الكتاب) .

وقد ختمت المائدة بصفة القدرة ، كما افتتحت النساء بذلك ^(١) .

وافتتحت النساء ببدء الخلق ، وختمت المائدة بالنتهى من البعث والجزاء ^(٢) . فكانت سورة واحدة ، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى .

ولما وقع فى سورة النساء : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس) (١٠٥) الآيات . فكانت نازلة فى قصة مارق سرق درعا ^(٣) ، فصل فى سورة المائدة أحكام السراق والمائتين .

ولما ذكر فى سورة النساء أنه أنزل إليك الكتاب لتحكم بين الناس ، ذكر فى سورة المائدة آيات فى الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار ، وكرر قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) « ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ » . فانظر إلى هذه السور الأربع للمدنيات ، وحسن ترتيبها ، وتلاحها ، وتناسقها ، وتلازمها .

وقد افتتحت بالبقرة التى هى أول ما نزل بالمدينة ، وختمت بالمائدة التى هى آخر ما نزل بها ، كما فى حديث الترمذى ^(٤) .

-
- (١) ختام المائدة قوله تعالى : (لله ملك السموات والارض وما بينهما وهو على كل شيء قدير (١٢٠) . وأول النساء : (يا أيها الناس اتقوا ربكم أنذى خلقكم من نفس واحدة (١) الآية . وهو دليل القدرة .
- (٢) بدء الخلق فى أول النساء قوله : (الذى خلقكم من نفس واحدة (١) الآية . والمنتهى فى ختام المائدة قوله : (هذا يوم ينفع الصالحين صدقهم (١١٩) الآية .
- (٣) قصة الدرع أخرجه ابن كثير فى التفسير : ٣٥٨/٢ ، ٣٥٩ ، وعزاها الى ابن مردويه ، من طريق عطية العوفى . ورواه الترمذى فى حديث طويل فيه سرقة طعام وسلاح : ٣٩٥/٨ — ٣٩٩ بتحفة الاحوذى . وأخرجه الحاكم فى المستدرک ٢٨٥/٤ — ٢٨٨ . وانظر ارشاد الرحمن فى المتشابه والناسخ والنسوخ وأسباب النزول وتجويز القرآن للاجهورى ورقة : ١٣٦ ، ب لزيادة التفصيل .
- (٤) أخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ٤٣٦/٨ ، ٤٣٧ : (آخر سورة نزلت المسائدة والفتح . وقال المباركورى : روى الشبهان عن البراء : آخر نزلت (يستفتونك قل الله يفتيك) . وآخر سورة نزلت براءة . ورد البيهقى بهذا التعارض بأن كل واحد اجاب بها عنده . وقال الباقلانى : ليس فى هذه الاقوال شيء مرفوع الى الربى صلى الله عليه وسلم وكل واحد قال يضرب اجتهاد (تحفة الاحوذى : ٤٣٦/٨ ، ٤٣٧) . وانظر (نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص ١٣٥) .

« سورة الأنعام »

قال بعضهم : مناسبة هذه السورة لآخر المائة : أنها افتتحت بالحمد ، وتلك ختمت بفصل القضاء ، وهما متلازمان كما قال : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) (٣٩ : ٧٥) .

وقد ظهر لي بفضل الله مع ما قدمت الإشارة إليه في آية (زين للناس) . أنه لما ذكر في آخر المائة . (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) (١٢٠) على سبيل الإجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله .

فبدأ بذكر : أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جبل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه قوله : (وما فيهن) في آخر المائة . وضمن قوله : (الحمد لله) [أول الأنعام] أن له ملك جميع المحامد ، وهو من بسط : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) [في آخر المائة] :

ثم ذكر : أنه خلق النوع الإنساني ، وقضى له أجلا مسمى ، وجعل له أجلا آخر للبعث ، وأنه منشئ القرون قرنا بعد قرن ، ثم قال : (قل لمن مافى السموات والأرض) (١٢) . فأثبت له ملك جميع المنظورات . ثم قال : (وله ما سكن في الليل والنهار) (١٣) . فأثبت له ملك جميع الظروف لظرفي الزمان . ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان ، من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة ، والموت والحياة ، ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن ، من التيرين ، والنجوم ، وخلق الإصباح ، وخلق الحب والنوى ، وإزالة الماء ، وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات ، والأنعام ، ومنها حولة وفرش . وكل ذلك تفصيل للملك ما فيهن : وهذه مناسبة جليلة .

نم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والمالك، أكثر فيها من ذكر الرب الذى هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنسانى والمملوكى، والملكى والشیطانى، والحيوانى والنباتى، وما تضمنته من الوصايا، فكلها متعلق بالقوام والمعاش الدنيوى، ثم أشار إلى أشرط الساعة.

فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها، وما يتعلق بها، وما يرجع إليها، فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المسكية بها^(١)، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها.

وهى فى جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير سورة البقرة فى جمعها العلوم والمصالح الدينية. وما ذكر فيها من العبادات المحضة، فعلى سبيل الإيجاز والإيماء، كنظير ما وقع فى البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه، فإنه على سبيل الاختصار والإشارة.

فإن قلت: فلم لا أفتح القرآن بهذه السورة، مقدّمة على سورة البقرة، لأن بدء الخلق مقدّم على الأحكام والتعبدات؟

قلت: للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح للعاش والدنيا، وأن المقصود إنما هو العبادة، فقدم ما هو الأهم فى نظر الشرع^(٢)، ولأن علم بدء الخلق كالفضلة، وعلوم الأحكام والتكاليف متعين على كل واحد.

(١) الانعام مكية وقد نقل السيوطى ذلك عن ابن الضريس فى فضائل القرآن من طريق محمد بن عبد الله الرازى الى ابن عباس (الانعام ١/٤٢).

(٢) ولهذا جاء فى البقرة: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم (٢١) وليس فى القرآن غيره بلفظه. قال الكرماني: العبادة فى الآية: التوحد. وهو أول ما يلزم العبد من المعارف. فكان هذا أول خطاب خاطب به العباد فى القرآن، ثم ذكر سائر المعارف، وبنى عليها العبادات فيها بعدها من السور والآيات (أسرار التكرار فى القرآن (٢٢)).

فلذلك لا ينبغي النظر في علم بدء الخلق وما جرى مجراه من التواريخ إلا بعد النظر في علم الأحكام وإتقانه .

ثم ظهر لي بحمد الله وجه آخر ، أتقن مما تقدم . وهو . أنه لما ذكر في سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) (٨٧) إلى آخره ، فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله افتراء عليه ، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئاً مما أحل الله ، فيشابهوا بذلك الكفار في صنيعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز ، ساق هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار في صنيعهم ، فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل ، ثم جادلهم فيه ، وأقام الدلائل على بطلانه ، وعارضهم وناقضهم ، إلى غير ذلك مما شملت عليه القصة ^(١) فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال ، وتفصيلاً وبسطاً ، وإتماماً وإطناباً .

وافتتحت بذكر الخلق والملك ^(٢) ، لأن الخالق والمالك هو الذي له التصرف في ملكه ، ومخلوقاته ، إباحة ومنعاً ، وتحريماً وتحليلاً ، فيجب ألا يتعدى عليه بالتصرف في ملكه .

وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله : (رب العالمين) . وللبقرة من حيث شرحها لإجمال قوله : (الذي خلقكم والذين من قبلكم) « ٢١ » . وقوله : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) « ٢٩ » . وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله : (والأنعام والحارث) « ١٤ » . وقوله : (كل نفس ذائقة للموت) « ١٨٥ » . الآية .

(١) وهذا البيان الكامل في قوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) إلى (سيجزيهم وصنهم انه حكيم عليم (١٣٦ - ١٣٩) .

(٢) وذلك قوله تعالى : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) إلى (وهو الله في السموات والأرض يعلم سرهم وجههم ويعلم ما تكسبون (١ - ٢) .

وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق ، والتبحيح لما حرموه على أزواجهم ، وقتل البنات بالأوآد .^(١)

وبالمائة من حيث اشتغالها على الأطعمة بأنواعها .^(٢)

وفي افتتاح السور للكية بها وجهان آخران من للناسبة .

الأول : افتتاحها بالحمد .

والثاني : مشابقتها للبقرة ، للفتيح بها السور للمدنية ، من حيث أن كلاهما نزل مشيعاً . ففي حديث أحمد : « البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً » .^(٣) وروى الطبراني وغيره من طرق : « أن الأنعام شيعها سبعون ألف ملك » . وفي رواية : « خمسمائة ملك » .^(٤)

ووجه آخر ، وهو : أن كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد . وهذه الربع الثاني ، والكهف للربع الثالث ، وسبأ وفاطر للربع الرابع .
وجميع هذه الوجوه التي استنبطتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كنقطة من بحر .

ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق ، ذكر فيها ما وقع عند بدء

(١) سبق ما يدل على بدء الخلق ، وما حرموه على أزواجهم ، أما تبحيح قتل البنات بالواد فجاء عقبه في قوله تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وهموا ما رزقهم الله (١٤٠) .

(٢) الأطعمة ذكرت هنا مفصلة من وله تعالى : (وهو الذي أنشأ جنات معروشات) إلى قوله : (إن تبعمون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون (١٤١ - ١٤٨) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند : ٢٦/٥ من معطل بن يسار . وأخرج أوله القمزي : ١٨١/٨ بتحفة الأهودي . والدارمي في فضائل القرآن من ابن مسعود : ٤٤٧/٢ . ونزول الملائكة معها أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد : ٢١١/٦ وعزاه للطبراني .

(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد من ابن عمر : ١٩/٧ ، ٢٠ ، وفيه (أنزلت جيلة واحدة) وفيه (لمهزجل بالتبحيح والتصيد) . وعزاه للطبراني وقال : فيه يوسف الصلار ، وهو ضميم . وقال ابن الجوزي : متروك . (المثل المتناهية من اسمه يوسف) ونقل السيوطي عن ابن الصلاح في قتلاؤه رواية تخالف ذلك : (لهما لم تنزل جيلة ، بل نزلت منها آيات بالمدنية ، قيل : ثلاث ، وقيل : غير ذلك (الإنسان : ١٣٧/١) .

الخلق ، وهو قوله : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) « ٥٤ » . ففي الصحيح :
 « لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ، كتب كتابا عنده فوق العرش : إن
 رحمتي سبقت غضبي » ^(١)

« سورة الأعراف »

أقول : مناسبة وضع هذه السورة عقب سورة الأنعام فيها ألهمني الله
 سبحانه : أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق ، وقال فيها : (هو الذي
 خلقكم من طين) « ٢ » . وقال في بيان القرون : (كم أهلكننا من قبلهم
 من قرن) « ٦ » . وأشار فيها إلى ذكر المرسلين ، وتعداد كثير منهم ،
 وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال ، لا التفصيل ، ذكرت هذه السورة
 عقبها ، لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها .

فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط ، بحيث لم تبسط في سورة كما بسطت
 فيها . ^(٢) وذلك تفصيل إجمال قوله : (خلقكم من طين) « ٦ : ٢ » ثم فصلت
 قصص المرسلين وأممهم ، وكيفية إهلاكهم ، تفصيلا تاما شافيا مستوعبا ،
 لم يقع نظيره في سورة غيرها ^(٣) ، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورمسهم ،
 فكانت هذه السورة شرحا لتلك الآيات الثلاث .

وأيضاً ، فذلك تفصيل قوله : (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض)
 « ٦ : ١٦٥ » . ولهذا صدر هذه السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق : ١٢٩/٤ . وفيه (كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش) .

(٢) وذلك في قوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)
 إلى : وقال فيها تعيين وفيها تموتون ومنها اخرجون (١١ - ٢٥)

(٣) وذلك من قوله : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) إلى (فاتصص القصص
 لعلهم يتفكرون) « ٥٩ - ١٢٦ » .

خليفة^(١) . وقال في قصة عاد : (جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) (٦٩) .
وفي قصة ثمود : (جعلكم خلفاء من بعد عاد) (٧٤) .

وأيضاً فقد قال في الأنعام : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (١٢) .
وهو موجز ، وبسطه هنا بقوله : (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين
يتقون) (١٥٦) . إلى آخره . فبين من كتبها لهم .

وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو : أنه قد تقدم
هناك : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه) (١٥٣) . وقوله : (وهذا
كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) (١٥٥) . فافتتح هذه السورة أيضاً
باتباع الكتاب في قوله : (كتاب أنزل إليك) إلى (اتبعوا ما أنزل إليكم
من ربكم) (٣ ، ٢) .

وأيضاً لما تقدم في الأنعام : (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) (١٥٩) .
(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (١٦٤) . قال
في مفتتح هذه السورة : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين .
فلنقصن عليهم بعلم) (٦ ، ٧) . وذلك شرح التنبيه المذكورة .

وأيضاً فلما قال في الأنعام : (من جاء بالحسنة فله هشر أمثالها) (١٦)
الآية . وذلك لا يظهر إلا في الميزان ، افتتح هذه السورة بذكر الوزن ،
فقال : (والوزن يومئذ الحق) (٨) . ثم ذكر من ثقلت موازينه ، وهو
من زادت حسنته على سيئاته ، ثم من خفت موازينه ، وهو من زادت سيئاته
على حسنته ، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف ، وهم قوم استوت حسناتهم
وسيئاتهم .

(١) ذلك في الآية رقم (١١) إلى آخر الآية رقم (٢٥) .

« سورة الأنفال »

أعلم أن وضع هذه السورة وبراءة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ والصحابة ، كما هو الراجح في سائر السور ، بل اجتهد من عثمان رضى الله عنه .

وقد كان يظهر في بادىء الرأى : أن المناسب لإيلاء الأعراف بيونس وهود ، لا شتراك كل في اشتغالها على قصص الأنبياء ، وأنها مكية النزول ، خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطوال ، وعدوا السابعة يونس ، وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل^(١) . ففى فصلها من الأعراف بسورتين هما الأنفال وبراءة فصل للنظير عن سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال ، بالنسبة إلى الأعراف وبراءة .

وقد استشكل ابن عباس حبر الأمة قديما ذلك . فأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال . قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثاني^(٢) . وإلى براءة وهى من المثين^(٣) ، فقرتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب ،

(١) السبع الطوال كما أخرج النسائى : ١١٤/١ عن ابن عباس : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والاععام ، والأعراف . قال الراوى : وفكر السابعة فنسبتها . وأورد السيوطى نقلا عن ابن أبى حاتم وغيره عن سعيد بن جبير : ان السابعة يونس (الانتان : ٢٢٠/١) .

(٢) المثاني : إما أنها من الثناء . أو فيها الثناء والدعاء . أو لأنها تثنى بغيرها . (الانتان : ١٩٠/١) وقيل : لأنها ثانية للمثين ، تالية لها وقيل : لتفنية الامثال فيها بالمعبر . حكاه السيوطى عن النكراوى (الانتان : ٢٢٠/١) .

(٣) المثين : ما زادت آياتها على المائة أو قاربها ، وهى ماوليت الطوال (الانتان : ٢٢٠/١) .

فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ^(١) ، ووضعتها في السبع الطوال ^(٢) .

فانظر إلى ابن عباس رضي الله عنه ، كيف استشكل على عثمان رضي الله عنه أمرين : وضع الأنفال وبراعة في أثناء السبع الطوال ، مفصولا بهما بين السادسة والسابعة ، ووضع الأنفال وهي قصيرة مع السور الطويلة . وانظر كيف أجاب عثمان رضي الله عنه أولا بأنه لم يكن عنده في ذلك توقيف ، فإنه استند إلى اجتهاد ، وأنه قرن بين الأنفال وبراعة لكونها شبيهة بقصتها في اشتغال كل منهما على القتال ، ونبذ اليهود ، وهذا وجه بين المناسب جلي ، فرضى الله عن الصحابة ، ما أدق أفهامهم ! وأجزل آراهم ! وأعظم أحلامهم ! وأقول : يتم بيان مقصد عثمان رضي الله عنه في ذلك بأمر فتح الله بها :

الأول : أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها ، لكونها مشتملة على البسلة ، فقدمها لتكون لفظة منها ، وتكون براءة يخلوها منها كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف : إن الأنفال وبراعة سورة واحدة ، لا سورتان ^(٣)

(١) قال الباقلائي : إنما لم تكتب البسلة أول براءة لأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلم من بعده أن كاتبى فواتح السور لم يكتبوها برايتهم ، وإنما اتبعوا ما سن وشرع ، ولا فلا فرق بين براءة وغيرها لو كان من طريق الراي . وأيضا فإن براءة نزلت بالسيف وبعض اليهود ، وفي البسلة رافة ورحمة وأمان ، فتركنا لأجل ذلك (نكت الانتصار لنقل القرآن : ٧٧ ، ٧٨) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند : ٧/١ وأبو داود في الصلاة : ٢٠٨/١ والترمذي في التفسير : ٤٧٧/٨ — ٤٧٨ والحاكم في المستدرک : ٢٣٠/٢ . وانظر الدر المنثور : ٢٠٧/٢ وعزاه السيوطي لابن أبي شيبه والنسائي ولم أجد في النسائي .

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن أبي روق ، وابن أبي حاتم عن سفيان ، وابن أشعث عن ابن الهيثم (الاتقان : ٢٢٥/١) .

الثاني : أنه وضع براءة هنا لمناسبة الطول ، فإنه ليس في القرآن بعد الأعراف أنسب ليونس طولا منها ، وذلك كاف في المناسبة .

الثالث : أنه خلل بالسورتين [الأنفال وبراءة] أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول ، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يبين محلهما ، فوضعا كاللوضع المستعار بين السبع الطوال ، بخلاف ما لو وضعتا بعد السبع الطوال ، فإنه كان يوم أن ذلك محلهما بتوقيف ، وترتيب السبع الطوال يرشد إلى دفع هذا الوم^(١) .

فانظر إلى هذه الدقيقة التي فتح الله بها ، ولا يفوص عليها إلا غواص .
الرابع : أنه لو أخرهما وقدم يونس ، وآتى بعد براءة يهود ، كما في مصحف أبي بن كعب ، لمراعاة مناسبة السبع الطوال ، وإيلاء بعضها بعضا ، لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر آكد في المناسبة . فإن الأولى بسورة يونس أن تولى بالسور الخمس التي بعدها ، لما اشتركت فيه من الاشتغال على القصص ، ومن الافتتاح بالذكر ، وبذكر الكتاب ، ومن كونها مكيات ، ومن تناسب ما عدا الحجر في المقدار . وبالتسمية باسم نبي ، والرعد اسم^(٢) ملك ، وهو مناسب لأسماء الأنبياء .

فهذه ستة وجوه في مناسبة الاتصال بين يونس وما بعدها ، وهي آكد من ذلك الوجه السابق في تقديم يونس بعد الأعراف .

ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل ، مع كونها أقصر منها

(١) أى : وهم أن يكون وضعهما بين السبع الطوال بتوقيف . وقد جاء ترتيب السبع الطوال متواليات .

(٢) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس : ١٤٥/٨ أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أخرنا عن الرعد . فقال : « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » . وذكر السيوطي في الاقتان : ٧٩/٤ : أن ابن أبي حنيفة أخرجه عن عكرمة ، وأن مجاهد سئل عن الرعد فقال : ملك . ألم تر الله يقول (ويسبح الرعد بحمده) .

ولو أخرت براءة عن هذه السور الست للناسبة جدا بطولها لجاءت بعد عشر سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة في الطول .

ويشهد لمراعاة الفوائح في مناسبة الوضع ما ذكرنا من تقديم الحجر على النحل لمناسبة ذوات (الر) قبلها ، وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبة البقرة ، مع الافتتاح بـ (الم) ، وتوالي الطوامين والحواميم ، وتوالي العنكبوت والروم والقمر والسجدة ، لافتتاح كل بـ (الم) ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التي هي أطول منها .
هذا ما فتح الله به .

وأما ابن مسعود فقدم في مصحفه البقرة على النساء ، وآل عمران ، والأعراف ، والأنعام ، والمائدة ، ويونس ، فراهى الطوال ، وقدم الأطول فالأطول . ثم تلى بالمتين ، فقدم براءة ، ثم النحل ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الكهف . وهكذا الأطول فالأطول ، وذكر الأنفال بعد النور^(١) .

ووجه مناسبتها لها : أن كلا منهما مدنية ، ومشملة على أحكام ، وأن في النور (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) « ٥٥ » الآية . وفي الأنفال (واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون) « ٢٦ » الآية . ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل ، وذكر به في الثانية . فتأمل .

(١) انظر الاقتان : ٢٢٤/١ نقلا من ابن اشفة في المصاحف من رواية جرير بن عبد الصيد .

« سورة براءة »

أقول : قد عرف وجه مناسبتها ، ونزيد هنا أن صدرها ^(١) تفصيل لإجمال قوله في الأنفال : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) « ٥٨ » . وآيات الأمر بالقتال متصلة بقوله هناك : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) « ٦٠ » الآية . ولذا قال هنا في قصة المنافقين : (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة) « ٤٦ » .

ثم بين السورتين تناسب من وجه آخر ، وهو : أنه سبحانه في الأنفال تولى قسمة الغنائم ، وجعل خُمسها خمسة أخماس ^(٢) ، وفي براءة تولى قسمة الصدقات ، وجعلها لثمانية أصناف ^(٣) .

« سورة يونس »

أقول : قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم في الأنفال . ونزيد هنا : أن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف ، وأنه سبحانه قال فيها : (أن أُنذِر الناس وبشر الذين آمنوا) « ٢ » « فقدم الإنذار وعمه ، وأخبر البشارة وخصمها . وقال تعالى في مطلع الأعراف : (لتُنذِر به وذكرى للمؤمنين) « ٢٥ » . فخص الذكرى وأخرها ، وقدم الإنذار ، وحذف مفعوله ليُعم .

وقال هنا : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام

-
- (١) صدر القصة : (ولما أنزل من الله ورسوله إلى القاص يوم الحج الأكبر أن الله يرى من المشركين ورسوله) إلى (فإذا أنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) — (٣ - ٥) .
- (٢) وذلك قوله : (واعلموا أنها غنيمت من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) — (٤١) الآية .
- (٣) وذلك قوله : (أنها الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة طلبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عزيز حكيم) — (٦٠) .

ثم استوى على العرش (« ٣ » . وقال في الأوائل ، أى أوائل الأعراف مثل ذلك^(١) .

وقال هنا : (يدبر الأمر) « ٣٥ » . وقال هناك : (مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) « ٥٤ » .

وأيضاً فقد ذكرت قصة فرعون وقومه في الأعراف ، فاختصر ذكر عذابهم ، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط^(٢) .
فهى شارحة لما أجمل في سورة الأعراف منه .

« سورة هود »

أقول : وجه وضعها بعد سورة يونس زيادة على الأوجه الستة السابقة :
أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جداً ، مجملة^(٣) ، فشرحت في هذه السورة وبسطت بما لم يبسطه في غيرها من السور ، ولا في سورة الأعراف على طولها ، ولا في سورة (إنا أرسلنا نوحاً) التى أفرقت لقصته .

فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في سورة يونس . فإن قوله هناك :
(واتبع ما يوحى إليك) « ١٠٩ » هو عين قوله هنا : (كتاب أحكمت آياته)
ثم فصلت من لدن حكيم خبير (« ٢٢ ») . فكان أول هود تفصيلاً لخاتمة يونس .

(١) وذلك في قوله : (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يمشى الليل النهار - (٥٤) .

(٢) في عذاب فرعون قال تعالى في الاعراف : (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين - (١٣٦) . وقال في يونس : (فانتقمهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرقى قال آمنت) الى (فاليوم تنجيكَ ببذلك لتكون لمن خلفك آية (٩٠ - ٩٢) .

(٣) وذلك من قوله : (واتل عليهم نبا نوح) الى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين (٧١ - ٧٣) .

(٤) وذلك في قوله : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) الى (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك - (٢٥ - ٤٨) .

« سورة يوسف »

أقول : وجه وضعها بعد سورة هود زيادة على الأوجه الستة السابقة : أن قوله في مطلعها : (نحن نقص عليك أحسن القصص) « ٣ » مناسب لقوله في مقطع تلك : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) « ١٢٠ » وأيضاً فلما وقع في سورة هود . (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) « ٢١ » . وقوله : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) « ٧٣ » . ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده ، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته ، فكان كالشرح لإجمال ذلك .

وكذلك قال هنا : (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبيك من قبل إبراهيم وإسحاق) « ٦ » . فكان ذلك كاللقترن بقوله في هود : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) « ٤٨ » .

وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول : أن يونس نزلت ، ثم هود ، ثم يوسف ^(١) . وهذا وجه آخر من وجوه للنسبة في ترتيب هذه السور الثلاث ، لترتيبها في النزول هكذا .

« سورة الرعد »

أقول : وجه وضعها بعد سورة يوسف زيادة على ما تقدم بعد ما فكرت فيه طائفة من الزمان : أنه سبحانه قال في آخر تلك : (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) « ١٠٥ » . فذكر آيات السماوية والأرضية مجتمعة ، ثم فصل في مطلع هذه السورة .

(١) الانتقان : ١٧/١ نقلاً عن محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه .

فَقَوْلُهُ (اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهُنَّ آمَنَ) عَلَى الْعَرْشِ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسٍ وَأَنْهَاراً وَمَنْ
كُلَّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنين يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صَنْوَانٍ
وغير صَنْوَانٍ يَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢-٤) تفصيل الآيات الأرضية .

هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق ، وافتتاح
هذه بمثل ذلك ^(١) ، وهو من تشابه الأطراف .

« سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ »

أقول : وجه وضعها بعد سورة الرعد زيادة على ما تقدم بعد إفكاري
فيه برهة : أن قوله في مطلعها : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) « ٢ » مناسب لقوله :
فِي مَقْطَعِ تِلْكَ : (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) « ٤٣ » . على أن المراد بـ (مَنْ)
هو : اللهُ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ .

وأيضاً في الرعد : (وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرِمْسٍ مِنْ قِبْلِكَ فَأَمْلَيْتَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ) « ٣٢ » . وذلك مجمل في أربعة مواضع : الرسل ، والمستهزئين ،
وصفة الاستهزاء ، والأخذ . وقد فصلت الأربعة في قوله : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَطَارِدٍ) « ٩٥-٩٦ » الآيات ^(٢) .

(١) خُتِمَ يُوسُفُ : (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ - (١١١) . وافتتاح هذه : (تِلْكَ آيَاتُ
الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ - (١) .
(٢) الموضح الأربعة المفصلة لما أجمل في سورة الرعد هي : الرسل . في قوله :
(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَطَارِدٍ وَالدَّهْرِيُّ وَالْكَافِرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ
إِلَّا اللَّهُ (٩) الآية .

والمستهزئون ، وصلة الاستهزاء ، في قوله : (نَادَوْا إِبْرَاهِيمَ فِي أَنْوَابِهِمْ وَقَالُوا
إِنَّا نَكْفُرُ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ (٩) . وقوله : (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَرِيحُونَ أَنْ تَسْخَرُوا
عِبَادَكَ بِعَدُوِّ آبَائِنَا (١٠) . لنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعْمَدُنَّ فِي مِلْطِنَا (١٣) . والأخذ :
في قوله تَعَالَى لَنَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنَسَخِّنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ (١٢ ، ١٤) .
٩١/٢ .

« سورة الحجر »

أقول : تقدمت الأوجه في اقترانها بالسورة السابقة . وإنما أخرت عنها
 اقصرها بالنسبة إليها ، وهذا القسم من سور القرآن للثمين ، فناسب تقديم
 الأطول ، مع مناسبة ماختمت به ابراعة الختام ، وهو قوله : (واعبد ربك
 حتى يأتيك اليقين) (٩٩) . فإنه مفسر بالموت ^(١) ، وذلك مقطع في غاية البراعة .
 وقد وقع ذلك في أواخر السور المقترنة . ففي آخر آل عمران : (واتقوا الله
 اعلمكم تغفلون) (٢٠٠) . وفي آخر الطواسين : (كل شيء هالك إلا وجهه أלה
 الحكم وإليه ترجعون) (٢٨ : ٨٨) . وفي آخر ذوات (الر) : (وانتظر إنهم
 منتظرون) (٣٢ : ٣٠) . وفي آخر الحواميم (كأنهم يوم يرون ما يوعدون
 لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) (٤٦ : ٣٥) .

ثم ظهر لي وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم ، فإنه تعالى
 لما قال هناك في وصف يوم القيامة : (وبرزوا لله الواحد القهار . وترى الجرمين
 يومئذ مقرنين في الأصفاد . سراويلهم من قطران وتغشى وجوههم النار)
 « ٤٨ : ٥٠ » . قال هنا : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) « ٢ » فأخبر
 أن الجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين
 قد أخرجوا منها ، تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين . وذلك وجه حسن في الربط ،
 مع اختتام آخر تلك بوصف الكتاب ، وافتتاح هذه به ^(٢) ، وذلك من
 تشابه الأطراف .

« سورة النحل »

أقول : وجه وضعها بعد سورة الحجر : أن آخرها شديد الالتئام بأول
 هذه ، فإن قوله في آخر تلك : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) « ٩٩ » .

(١) أخرجه البخاري من سالم : ١٠٢/٦ . ونفس المعنى أخرجه البخاري في الجنائز :

وأحمد في المسند : ٤٣٦/٦ .

(٢) ختم إبراهيم وهذا ابلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنها هو اله واحد وليذكر
 أولو الألباب (٥٢) وافتتاح هذه : (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ، فكانت
 متصلتان .

الذى هو مفسر بالوت ، ظاهر المناسبة لقوله هنا : (آتى أمر الله) (١) . وانظر كيف جاء فى المقدمة بيأتيك اليقين ، وفى المتأخرة بلفظ الماضى ، لأن المستقبل سابق على الماضى ، كما تقرر فى المعقول والعربية (٢) .

وظهر لى أن هذه السورة شديدة الاعتلاق بسورة إبراهيم ، وإنما تأخرت عنها المناسبة للحجر ، فى كونها من ذوات (الر) .

وذلك : أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت ، ومن هو ميت وغيره (٣) ، وذلك أيضا فى هذه بقوله : (الذين تتوفاهم الملائكة ظلمى أنفسهم) (٢٨) الآيات . فذكر الفتنة ، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال ، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب (٤) .

ووقع فى سورة إبراهيم : (وقد مكروا مكرم وهند الله مكرم وإن كان مكرم لتزول منه الجبال) (٤٦) . وقيل : إنها فى الجبل الذى أراد أن يصعد السماء بالنسور (٥) . ووقع هنا أيضا فى قوله : (وقد مكر الذين من قبلهم) (٢٦) .

ووقع فى سورة إبراهيم ذكر النعم ، وقال عقبها : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (٣٤) . ووقع هنا ذكر ذلك معقباً بمثل ذلك .

(١) مراد المؤلف أن المضارع سابق على الماضى فى الكلام والأخبار ، لاقى الزمان . فنقولك الآن يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة سابق فى الخبر ، ولا يجوز أن يقال : قام الناس لرب العالمين يوم القيامة إلا بعد تمام ذلك اليمت .

(٢) وذلك فى قوله : (يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتية الموت من كل مكان وما هو بيت ومن ورائه عذاب غليظ (١٧٠) .

(٣) وذلك فى قوله تعالى عن العذاب : (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها (٢٩) وفى النعيم : (جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار (٣٢) .

(٤) يروى أنه جوع نسرين ، وأوثق رجل كل منهما فى تابوت ، وقعد هو وآخر فى التابوت ورفع عصا عليها اللحم ، فطارا يتبعان اللحم حتى غابا فى الجو (تفسير الطبرى : ٣ / ١٦٠) .

« سورة بنى اسرائيل »

اعلم أن هذه السورة والأربع بعدها من قديم ما أنزل . أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى اسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « من العتاق الأول ، ومن من تلادى ^(١) » . وهذا وجه فى ترتيبها ، وهو اشتراكها فى قدم النزول ، وكونها مكيات ، وكونها مشتملة على القصص .

وقد ظهر لى فى وجه اتصالها بسورة النحل : أنه سبحانه لما قال فى آخر النحل : (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) « ١٢٤ » . فسر فى هذه شريعة أهل السبت وشأنهم ، فذكر فيها جميع ما شرع لهم فى التوراة ، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : « التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى اسرائيل » ^(٢) . وذكر عصياتهم وفسادهم ، وتخريب مسجدهم ، ثم ذكر استغفارهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجهم من المدينة ، ثم ذكر مؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون ، وأخبر أن استغفارهم للنبي صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استغفروا ، ووقع ذلك أيضا .

ولما كانت هذه السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد الأقصى أسرى بالمصطفى إليه ، تشرىقاله بحلول ركابه الشريف . فله الحمد على ما ألهم .

« سورة الكهف »

قال بعضهم : مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ،

(١) أخرجه البخارى فى التفسير : ١٨٩/٦ عن ابن مسعود .

(٢) تفسير ابن جرير : ٢٤٣/١٧ .

وهذه بالتحميد^(١)، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد، نحو: (فسبح بحمد ربك) ١٥ : ٩٨ : ٢٠ : ١٣ و ٤٠ : ٥٥ و ٣٩ : ٥٠ و ٥٢ : ٤٨ . وسبحان الله وبحمده .

قلت : مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضا^(٢)، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف .

ثم ظهر لي وجه آخر أحسن في الاتصال . وذلك : أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة أشياء : عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذى القرنين^(٣) . وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة بني إسرائيل ، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين .

فإن قلت : هلا جمعت الثلاثة في سورة واحدة ؟

قلت : لما لم يقع الجواب عن الأول بالبيان^(٤) ، ناسب فصله في سورة .

ثم ظهر لي وجه آخر : وهو أنه لما قال فيها : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ٥٨ . والخطاب لليهود ، واستظهر على ذلك بقصة موسى في بني إسرائيل مع

(١) وسبب آخر ذكره ابن الزمكاني هو : أن سورة الإسراء اشتملت على الإسراء الذي كذب به المشركون وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم من أجله ، وتكذيبه تكذيب لله ، فأتى بسبحان تنزيها لله عما نسب إلى نبيه من الكذب . وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحي ، نزلت مبينة أن الله لم يقطع نعمته عن رسوله ولا المؤمنين فناسب افتتاحها بالحمد (الانتقان : ٣٨٧/٣) .

(٢) ختام الإسراء : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك) (١١١) الآية .

(٣) انظر تفسير ابن كثير : ١٣٧/٥ .

(٤) لم يقع الجواب بالبيان ، وإنما وقع باسناد علم الروح إلى الله : (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) — (٨٥) .

الخضر، التي كان سببها ذكر العلم والأعلم^(١)، وما دلت عليه من إحاطة
معلومات الله عز وجل التي لا تحصى، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل
لما ذكر من الحكم.

وقد ورد في الحديث أنه لما نزل: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قال
اليهود: قد أوتينا التوراة، فيها علم كل شيء، فنزل: (قل لو كان البحر
مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً)
(١٠٩) في هذه السورة^(٢). فهذا وجه آخر في المناسبة. وتكون السورة
من هذه الجهة جواباً عن شبهة الخصوم فيما قدر بتلك.

وأيضاً فلما قال هناك: (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لنفيماً) (١٠٤)
شرح ذلك هنا وبسطه، بقوله: (فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء) إلى (ونفخ
في الصور فجمعناهم جماعاً. وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) (٩٨: ١٠٠)
فهذه وجوه عديدة في الاتصال.

«سورة مريم»

أقول: ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها: أن سورة الكهف اشتملت
على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف، وطول لبنهم هذه المدة الطويلة
بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر، وما فيها من الخارقات، وقصة
ذی القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان. قصة ولادة يحيى بن زكريا^(٣)،
وقصة ولادة عيسى، فنامب تتاليهما.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢٥٥/١ وفيه أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة،

ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً.

(٢) وفي رواية لابن جرير في التفسير: ١٠٤/١٥: فنزلت: (ولو أن ما في الأرض من
شجرة أقلام) الآية.

(٣) ولادة يحيى كانت عجيبة، لأن أمه كانت قد بلغت سن اليأس، وأباه قد بلغ
من الكبر عتياً، فلا ينبغي مثلها أبداً.

وأيضا قد قيل : إن أصحاب الكهف يمشون قبل قيام الساعة ،
ويحجون مع عيسى ابن مريم حين ينزل^(١) ، ففي ذكر سورة مريم بعد سورة
أصحاب الكهف مع ذلك — إن ثبت — مالا يخفى من المناسبة .
وقد قيل أيضا : إنهم من قوم عيسى ، وإن قصتهم كانت في الفترة ،
فمناسب توالى قصتهم وقصة نبيهم^(٢) .

« سورة طه »

أقول : رويناه عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول : أن طه
نزلت بعد سورة مريم ، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف . وذلك وحده
كاف في مناسبة الوضع ، مع التأخر بالافتتاح بالحروف للمقطعة .
وظهر لي وجه آخر ، وهو : أنه لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من
الأنبياء ، وهم : زكريا ، ويحيى ، وعيسى ، الثلاثة مبسطة . وإبراهيم ، وهي
بين البسط والإيجاز . وموسى ، وهي موجزة بجملة^(٣) أشار إلى بقية النبيين في
الآية الأخيرة إجمالا^(٤) . وذكر في هذه السورة شرح قصة موسى ، التي أجملها
هناك ، فاستوعبها غاية الاستيعاب ، وبسطها أبلغ بسط^(٥) ، ثم أشار إلى
تفصيل قصة آدم ، الذي وقع مجرد اسمه هناك^(٦) . ثم أورد في سورة الأنبياء
بقية قصص من لم يذكر في مريم ، كنعوح ، ولوط ، وداود ، وسليمان ، وأيوب
وذى الكفل ، وذى النون ، وأشار إلى قصة من ذكرت قصته إشارة

- (١) لم نعرف على هذا الرأي نبيا بين أيدينا من مصادر .
- (٢) قال ابن كثير : الظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية ، لأن اليهود أشاروا على
تريش بسؤال النبي صلى الله عليه وسلم عنهم ، فدل على أنه محفوظ قبل
عيسى . (تفسير ابن كثير : ١٣٧/٥) .
- (٣) وردت قصة موسى في ثلاث آيات قصار من مريم (٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) .
- (٤) وذلك في قوله تعالى : (أولئك الذين أنعم الله من النبيين من ذرية آدم ومن
حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا (٥٨) الآية .
- (٥) وذلك في قوله : (وهل أتاك حديث موسى) إلى (ثم لننفسنه في اليم نسنا —
٩ — ١٧) .
- (٦) وقع مجرد ذكر اسم آدم في مريم في قوله : (من ذرية آدم (٥٨) . وفكرت قصته
بمفصلة في طه من قوله : (وإذا قلنا لللائكة اسجدوا لآدم) إلى (قلنا اهبطوا منها
جميعا بعضهم لبعض عدو (١١٦ — ١٢٢) .

وجيزة ، كموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وزكريا ، ومريم ، لتسكون السورتان
كالمقابلتين .

وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه ، ولم تذكر
حاله مع أبيه إلا إشارة ^(١) . كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة ،
ومع أبيه مبسوطا ^(٢) . فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب ، وبديع هذا الترتيب .

« سورة الأنبياء »

قدمت ما فيها مستوفى . وظهر لى فى اتصالها بآخر طه : أنه سبحانه لما
قال : (قل كل متربص فتربصوا) (١٣٥) . وقال قبله : (ولولا كلمة مسبقت
من ربك لكان لزاما وأجلا مسمى) (١٢٩) . قال فى مطلع هذه : (اقترب
للناس حسابهم) (١) إشارة إلى قرب الأجل ، ودنو الأمل المنتظر .

وفيه أيضاً مناسبة لقوله هناك : (ولا تمنن عينيك إلى ما تمننا به
أزواجاً منهم) (١٣١) الآية . فإن قرب الساعة يقتضى الإعراض عن هذه
الحياة الدنيا ، لدنوها من الزوال والفناء ، ولهذا ورد فى الحديث : أنها لما نزلت
قيل لبعض الصحابة : هلا سألت النبى صلى الله عليه وسلم عنها ؟ فقال :
« نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا » ^(٣) .

« سورة الحج »

أقول : وجه اتصالها بسورة الأنبياء : أنه ختمها بوصف الساعة فى قوله :
(واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) (٩٧) . وافتتح

(١) قصة إبراهيم فى الأنبياء وردت فى قوله : (ولقد آتينا إبراهيم رشده) (٥١)
الآية الى : (وكانوا لنا عابدين) (٧٢) . وكلها فى إبراهيم وقومه . أما عن إبراهيم
وأبيه فأشير إليهما فى قوله (إذ قال لأبيه وقومه (٥٢) الآية .
(٢) وردت قصة إبراهيم وأبيه فى مريم من قوله تعالى : (إذ قال إبراهيم لأبيه يا أبت
لم تعبد بالآل يسوع ولا ييسر (٤٢) الى (سأستغفر لك ربي انه كان بى حنيا (٤٧) .
وجاءت الإشارة اليه مع قومه فى قوله تعالى : (واعتزلكم وما تدعون من دون الله
(٤٨) الآية .

(٣) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر .

هذه بذلك ، فقال : (إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) — (١٥ ، ٢٠) .

« سورة المؤمنون »

أقول : وجه اتصالها بسورة الحج : أنه لما ختمها بقوله : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) (٧٧) . وكان ذلك مجالا ، فصلّه في فاتحة هذه السورة ، فذكر خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح ، فقال : (قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون) (١-٦) . الآيات .

ولما ذكر أول الحج قوله : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نبعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) (٥) الآية . زاده هنا بياناً في قوله : (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) (١٢ ، ١٣) الآيات . فكل جملة أوجزت هناك في القصد أطنب فيها هنا .

« سورة النور »

أقول : وجه اتصالها بسورة قد أفلح : أنه لما قال : (والذين هم لفروجهم حافظون) (٥) . ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فروجه ، من الزانية والزاني ، وما اتصل بذلك من شأن القذف ، وقصة الإفك ، والأمر بغض البصر^(١) ، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ،

(١) الزانية والزاني في قوله : (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) .

الى (وجرم ذلك على المؤمنين (٢ ، ٣) .

وجاء القذف في قوله : (والذين يرمون المحصنات) الى (وان الله تواب رحيم

(٦ - ١٠) . وهو شامل لاحكام اللعان .

وقصة الإفك هي التي أرجف بها المنافقون في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله

عنها حتى برأها الله تعالى : (ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) الى (والله

عزیز حكيم (١٢ - ١٨) .

وجاء غرض البصر في قوله : (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم) الى (وتوبوا

الى الله جيبما أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣٠ - ٣١) .

وحفظ فرجه ، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا^(١) .

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط ، ولا تناسق أبدع من هذا النسق .

« سورة الفرقان »

ظهر لى بفضل الله بعدما فكرت فى هذه : أن نسبة هذه السورة لسورة النور ، كنسبة سورة الأنعام إلى المائدة .

من حيث أن النور قد ختمت بقوله : (لله مافى السموات والأرض) . (٦٤) كما ختمت المائدة بقوله . (لله ملك السموات والأرض وما فىهن) (١٢٠) .

وكانت جملة النور أخصر من المائدة ، ثم فصلت هذه الجملة فى سورة الفرقان فافتتحت بقوله . (الذى له ملك السموات) إلى قوله . (وخلق كل شىء فتمده تقديرآ) (٢) . كما افتتحت الأنعام بمثل ذلك^(٢) . وكان قوله عقبه . (واتخذوا من دونه آلهة) (٣) إلى آخره ، نظير قوله هناك . (ثم الذين كفروا يبرهم يعدلون) (١) .

ثم ذكر فى خلال هذه السورة جملة من المخلوقات ، كمد الظل ، والليل ، والنوم ، والنهار ، والرياح ، والماء ، والأنعام ، والأناسى ، ومرج البحرين ، والإنسان ، والنسب ، والصهر ، وخلق السموات والأرض فى ستة أيام ، والامتواء على العرش ، وبروج السماء ، والسراج ، والقمر ، إلى غير ذلك ، مما هو تفصيل لجملة : (لله مافى السموات والأرض)^(٣) . كما فصل آخر المائدة فى الأنعام بمثل ذلك^(٤) . وكان البسط فى الأنعام أكثر لطولها .

(١) جاء الأمر بالنكاح ، والاستعفاف لغير القادر ، وعدم إكراه الفتيات على البغاء فى الآيات (٣٢ - ٣٣) .

(٢) افتتاح الأنعام قوله تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور (١) الآية .

(٣) جميع هذه المعانى جاءت فى قوله تعالى : (الم تر الى ربك كيف مد الظل) الى قوله : (تبارك الذى جعله فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا (٤٦ - ٦١) .

(٤) هذا التفصيل جاء فى الأنعام مفرقا فى الآيات : (١٢ ، ١٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩) .

ثم أشار في هذه السورة إلى القرون المكثبة وإهلاكهم ، كما أشار في الأنعام إلى ذلك^(١) . ثم أفصح عن هذه الإشارة في السورة التي تليها وهي الشعراء بالبسط التام ، والتفصيل البالغ^(٢) . كما أوضح تلك الإشارة التي في الأنعام ، وفصلها في سورة الأعراف التي تليها^(٣) .

فكانت هاتان السورتان [الفرقان والشعراء] في المثنائي ، نظير تينك السورتين [الأنعام والأعراف] في الطوال ، واتصالهما بآخر النور ، نظير اتصال تلك بآخر المائة ، المشتملة على فصل القضاء^(٤) .

ثم ظهر لي لطيفة أخرى ، وهي . أنه إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية ، افتتح أولها بالثناء على الله ، كالأنعام بعد المائة ، والإسراء بعد النحل ، وهذه بعد النور ، وسبأ بعد الأحزاب ، والحديد بعد الواقعة ، وتبارك بعد التحريم^(٥) ، لما في ذلك من الإشارة إلى نوع استقلال ، وإلى الانتقال من نوع إلى نوع .

« سورة الشعراء »

أقول . وجه اتصالها بسورة الفرقان أنه تعالى لما أشار فيها إلى قصص مجملة بقوله . (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً . فقلنا

(١) تفصيل أحوال القرون المكثبة وإهلاكهم في الفرقان في قوله : (فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كفروا) إلى (وكلا تبرنا تتبيرا) (٣٦ — ٣٩) . وفي الانعام في قوله : (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكثبين (١١) .

(٢) جاء ذلك في الآيات (٦٤ — ١٨٩) حيث جاء عن قوم كل رسول تكذيبهم إياه ، ووسيلة إهلاكهم .

(٣) تفصيل أحوال القرون المكثبة جاء في الأعراف في قوله : (لقد أرسلنا نوحا) إلى (فأولئك هم الخاسرون (٥٩ — ١٧٨) .

(٤) آخر المائدة (لله ملك السموات والأرض وما بينهما وهو على كل شيء قدير (١٢٠) وهو يشتمل على فضل التضاء ضمنا . وأول الانعام . (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) (١) الآية .

(٥) قول المؤلف : والإسراء بعد النحل ، لا يتفق مع قاعدته ، فكلاهما مكي ، وقوله : والحديد بعد الواقعة ، عكس قاعدته ، فالواقعة مكية ، والحديد مدنية ، وهناك سور مكية جاءت بعد المدنية وافتتحت بالثناء على القرآن ، كيونس بعد التوبة ، وإبراهيم بعد الرعد ، والنحل بعد الشعراء ، وق بعد الرحمن ، والفناء على القرآن ثناء على الله ضمنا .

وهناك مكيات بعد مدنيات لم تنفخ بالفناء على الله ، كالواقعة بعد الرحمن .

أذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً . وعاداً ونمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً (٣٥ - ٣٨) . شرح هذه القصص ، وفصلها أبلغ تفصيل في الشعراء التي تليها ، ولذلك رتبنا على ترتيب ذكرها في الآيات المذكورة . فبدىء بقصة موسى ^(١) ، ولو رتبنا على الواقع لأخرت كما في الأعراف .

فانظر إلى هذا السر اللطيف الذي من الله بالهامه .
ولما كان في الآيات المذكورة قوله . (وقروناً بين ذلك كثيراً) . زاد في الشعراء تفصيلاً لذلك قصة قوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب .
ولما ختم الفرقان بقوله : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (٦٣) . وقوله : (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) (٧٢) . ختم هذه السورة بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك ، واستثنى منهم من سلك سبيل أولئك ، وبين ما يمدح من الشعر ، ويدخل في قوله . (سلاماً) . وما يذم منه ، ويدخل في اللغو ^(٢) .
« سورة النمل »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنها كالتتمة لها ، في ذكر بقية القرون ، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان ، وداود ، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء ^(٣) .

- (١) بدىء بقصة موسى ، من قوله : (واذا نادى ربك موسى) (١٠) وما بعدها . ثم نوح في قوله : (كذبت قوم نوح المرسلين (١٠٥) وما بعدها . ثم عاد من قوله : (كذبت عاد المرسلين (١٢٢) وهكذا على ترتيب آيات الفرقان .
(٢) وذلك من قوله : (والشعراء يتبعهم الغاؤون) (٢٢٤) إلى آخر السورة (٢٢٧) .
(٣) قصة داود وسليمان في قوله : (ولقد آتينا داود وسليمان علماً) إلى (وأسلبنا مع سليمان لله رب العالمين) (١٥ - ٤٤) . وقصة لوط في قوله : (ولوطاً إذ قال لقومه اتبعون الفاحشة) إلى (نساء صباغ المنذرين) (٥٤ - ٥٨) .
ويقول المؤلف : إن قصة لوط هنا أبسط منها في الشعراء مخالف للواقع ، فهي في الشعراء أطول ، ولكنها ذكرت في النمل مع بيان أقصى ما وصلوا إليه من الانحلال الخلقي والانتكاس العقلي ، إذ عدوا طهارة لوط من الذنود الجنسية جريمة يستحق عليها النفي من البلاد . ولم يرد هذا التعليل في الشعراء . فلعل البسط في المعاني لا في المقدار .

وقد رويناه عن ابن عباس ، وجابر بن زيد ، في ترتيب السور : أن الشعراء أنزلت ، ثم طه ، ثم القصص . ولذلك كان ترتيبها في المصحف هكذا .

وأيضاً فقد وقع فيها : (وإذ قال موسى لأهله امكثوا إني آنست ناراً) (٧) ، إلى آخره . وذلك تفصيل قوله في الشعراء : (فوهب لي ربى حكماً وجعلني من المرسلين) (٢١) .

« سورة القصص »

أقول : ظهر لي بعد الفكرة : أنه سبحانه لما حكى في الشعراء قول فرعون لموسى . (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت) (١٨ ، ١٩) . إلى قول موسى . (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربى حكماً وجعلني من المرسلين) (٢١) . وقال في طس النمل قول موسى لأهله : (إني آنست ناراً) (٧) إلى آخره ، الذي هو في الوقوع بعد الفرار ، ولما كان على ميل الإشارة والإجمال ، بسط في هذه السورة ما أوجزه في السورتين ، وفصل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما .

فبدأ بشرح تربية فرعون له ، مصدراً بسبب ذلك : من علورعون ، وذبح أبناء بنى إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح ، وبسط القصة في تربيته ، وما وقع فيها إلى كبره ، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي ، وهي الفعلة التي فعل ، إلى الهم بذلك عليه ، والموجب لفراره إلى مدين^(١) ، إلى ما وقع له مع شعيب ، وتزوجه بابنته ، إلى أن صار

(١) مدين : مدينة قوم شعيب ، وهي تجاه تبوك ، على بحر القلزم ، وبها البئر التي استقى منها موسى لعنم شعيب (مرصود الاطلاع ١٢٤٦/٣) .

بأهله ، وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله : (امكثوا إني آنست ناراً) ،
إلى ما وقع له فيها من المناجاة الربيه ، وبعثه إليه رسولاً ، وما امتنع ذلك ، إلى
آخر القصة .

فكانت السورة شارحة لما أجمل في السورتين معاً ، على الترتيب .
وبذلك عرف وجه الحكمة في تقديم (طس) على هذه ، وتأخيرها عن
الشعراء ، فله الحمد على ما أظم .

« سورة العنكبوت »

أقول . ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما أخبر في أول
السورة السابقة عن فرعون أنه : (علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف
طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم) (٤) . افتتح هذه السورة بذكر المؤمنين
الذين فتنهم الكفار وعذبهم على الإيمان ، بمذاب دون ما عذب به قوم فرعون
بنى إسرائيل ، تسلياً لهم ، بما وقع لمن قبلهم ، وحثاً لهم على الصبر ، ولذلك قال
هنا : (ولقد فتننا الذين من قبلهم) (٣) . وهذه أيضاً من حكم تأخير القصص
على (طس) .

وأيضاً . فلما كان في خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبي ﷺ (١) ،
وفي خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله : (يا عبادي إن أرضي واسعة)
(٥٦) ناسب تتاليهما .

(١) وذلك في قوله تعالى : (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) (٨٥) الآية .
والمعنى : لرادك الى مكة ، كما في البخاري : ١٤٢/٦ . أى : كما
خرجت منها . وبه قال ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير والضحاك ،
واختاره ابن جرير (تفسير الطبري : ٨٠/٢٠) .

« سورة الروم »

أقول ظهر لي في اتصالها بما قبلها . أنها ختمت بقوله . (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ٦٩ . فافتتحت هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر ، وفرح المؤمنين بذلك ، وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ، ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة^(١) .

هذا مع تأخيرها بما قبلها في المطلع ، فإن كلا منهما افتتح بـ (الم) غير معقب بذكر القرآن ، وهو خلاف القاعدة الخاصة بالفتتح بالحروف المقطعة ، فإنها كلها عقببت بذكر الكتاب أو وصفه ، إلا هاتين السورتين وسورة القلم ، لنكتة ينتها في «أسرار التنزيل»^(٢) .

(١) وذلك في قوله تعالى : (غلبت الروم في أدنى الأرض) الى قوله : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله (٢ - ٥) .

(٢) ذكر المؤلف في المقدمة : أنه ألف هذا الكتاب الموسوعي ، ولم نثر عليه في قوائم المخطوطات ، وأشار اليه في الإقتصان : ٢٨١/١ ، ٣٦٩/٣ .

والذي نراه في سبب عدم افتتاح العنكبوت والروم بالكتاب أو وصفه والله أعلم : أنه لما تكرر الحديث عن الكتاب عقب الحروف المقطعة وأنه من عند الله ، وهدى للمتيقن ، وتنزيل من رب الصالحين ، كان لابد من ابتلاء المصدقين به حتى ينمزل المنافقون عن المؤمنين ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب وهذا بمثابة الاختبار انعملي لاستجابة الناس لأمر الكتاب ، ولا سيما وأن حملة تنسيق آثارها الكفار ضد الإيمان . ولذا قال تعالى في العنكبوت : (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم) الى أن قال : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم - ١٠ - ١٢) الآية .

أما في الروم فقد عقببت الحروف المقطعة باختبار ودليل على صدق وعد الكتاب الذي صدق الكتاب بالأخبار عن المستقبل وما يجري فيه من وعد الروم بالنصر بعد الهزيمة . وهذا ابتلاء يميز الله به المؤمنين من المنافقين عند هذا الوعد وموقف الفريقين منه . ودليل على صدق الكتاب وأنه من الله حينما تحقق النصر بالفعل .

(وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٦) .

أما سورة القلم فكانت ثلاثة السور نزولا بركة ، وكان الكفار قد أرجفوا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مجنون ، أو به مس من الجن ، فاقضى الأمر تسليطه وتثبيت فؤاده ، وقدم هذه التسلية على الدفاع عن القرآن الذي جاء عقب ذلك في الآيات (ولا تطع كل حلاف مهين) الى : (أساطير الأولين ١٠ - ١٥) .

« سورة لقمان »

أقول : ظهر لى فى اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة فى الافتتاح بـ (الم) .
أن قوله تعالى هنا : (هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون
الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) (٣ ، ٤) متعلق بقوله فى آخر سورة الروم :
(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) (٥٦)
الآية . فهذا عين إيقامهم بالآخرة ، وهم المحسنون الموقنون بما ذكر .

وأيضاً فى كلتا السورتين جملة من الأديان وبدء الخلق ^(١) .

وذكر فى الروم : (فى روضة يجبرون) « ١٥ » . وقد فسر بالسباع ^(٢) . وفى
لقمان : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) . « ٦ » . وقد فسر بالفناء ،
وآلات الملاهى ^(٣) .

« سورة السجدة »

أقول . وجه اتصالها بما قبلها . أنها شرحت مفاتيح الغيب الخمسة التى
ذكرت فى خاتمة لقمان .

فقوله هنا : (ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) « ٥ » .

(١) ذكرت جملة الأديان فى سورة الروم فى قوله تعالى : (أو لم يسيروا فى الأرض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الى قوله : (ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون — (٩ ، ١٠) وقوله : (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا —
(٣٢) . وبدء الخلق فى قوله : (ومن آياته أن خلقكم من تراب (٢٠) الآية ،
وما يصدها .

وذكرت جملة الأديان فى لقمان فى قوله : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث
(٦) الآية . وقوله : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير
(٢٠) وما يصدها . وبدء الخلق فى قوله : (خلق السموات بغير عمد ترونها
(١٠) الآية . وقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة (٨) الآية .

هو قول يحيى بن أبى كثير . انظر (تفسير ابن كثير ٢١٢/٦) .

(٢) هو قول ابن مسعود سمعه منه أبو الصهباء البكرى (تفسير الطبرى ٢١/٣٩) .

وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ،
والحسن . وانظر (صحيح الترمذى : ٥٠٢/٤ ، ٥٠٣ بتحفة الاحوذى) .

شرح لقوله هناك : (إن الله عنده علم الساعة) ﴿٣٤﴾ . ولذلك عقب هنا بقوله :
(عالم الغيب والشهادة) ﴿٦﴾ .

وقوله : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) ﴿٢٧﴾ . شرح لقوله :
(وينزل الغيث) ﴿٣٢﴾ .

وقوله : (الذي أحسن كل شيء خلقه) ﴿٧﴾ الآيات . شرح لقوله : (ويعلم
مافي الأرحام) ﴿٣٤﴾ .

وقوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) . و (ولو شئنا لآتينا
كل نفس هداها) ﴿١٣﴾ . شرح لقوله : (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) ﴿٣٤﴾ ،
وقوله : (أنذا ضللنا في الأرض) إلى قوله : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي
وكل بكم ثم إلى ربكم مرجعكم) ﴿١١﴾ ، شرح لقوله : (وما تدرى نفس بأى أرض
تموت) ﴿٣٤﴾ . فله الحمد على ما ألهم .

« سورة الأحزاب »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه ، ومقطع تلك ، فإن
تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ^(١) ،
[ومطلع هذه الأمر بتقوى الله ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، فصارت
كالتيمة لما ختمت به تلك ، حتى كأنها سورة واحدة] .

« سورة سبأ »

أقول : ظهر لى وجه اتصالها بما قبلها ، وهو أن تلك لما ختمت بقوله :
(ليعنب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على
المؤمنين والمؤمنات) ﴿٣٧﴾ . افتتحت هذه بأن له مافي السموات ومافي الأرض ^(٢)

(١) وذلك قوله تعالى : (فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون) (٣٠) .
(٢) وذلك قوله : (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد
في الآخرة (١) الآية .

وهذا الوصف لائق بذلك الحكم ، فإن للملك العام ، والقدرة التامة ، يقتضيان ذلك .

وخاتمة سورة الأحزاب : (وكان الله غفوراً رحيماً) (٧٣) . وفاصلة الآية الثانية من مطلع مباح : (وهو الرحيم الغفور) (٧٤) .

« سورة فاطر »

أقول : مناسبة وضعها بعد مباح . تأخيهما في الافتتاح بالحمد ، مع تناسبهما في المقدار .

وقال بعضهم : افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختام ما قبلها ، من قوله : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل) (٥٤) . كما قال : (قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (٦٠ . ٤٥) . فهو نظير اتصال أول الأنعام بفصل القضاء المختتم به المائة^(١) .

« سورة يس »

أقول . ظهر لي وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما ذكر في سورة فاطر قوله : (وجاءكم النذير) (٣٧) . وقوله : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير) (٤٢) . والمراد به محمد ﷺ^(٢) وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم . وهذا وجه بين .

وفي فاطر : (ومصر الشمس والقمر) (١٣ ، ١٤) الآيتين . وفي يس . (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) (٣٨ ، ٣٩) . وذلك أبسط وأوضح .

(١) آخر المائة (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) (١١٩) الآية . وأول الأنعام :

(الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) (١) الآية .

(٢) هو قول السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . انظر تفسير ابن كثير ٥٤٢/٦

وفي فاطر : (وترى الفلك فيه مواخر) (١٢) . وفي يس . (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) — (٤١ — ٤٣) . فزاد القصة بسطا .

« سورة الصافات »

أقول . هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام ، وكالشعراء بعد الفرقان ، في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم ^(١) ، كما أن يتك السورتين تفصيل لمثل ذلك كما تقدم .

« سورة ص »

أقول : هذه السورة بعد الصافات ، كطس بعد الشعراء ، وكطه والأنبياء بعد مريم ، وك يوسف بعد هود ، في كونها متممة لها بذكر من بقي من الأنبياء ، ممن لم يذكر فيها ، فإنه سبحانه ذكر في الصافات . نوحا ، وإبراهيم ، والذبيح ، وموسى ، وهارون ولوطا ، وإلياس ، ويونس ، وذكر هنا . داود ، وسليمان ، وأيوب ، وأشار إلى بقية من ذكر ، فهي بعدها أشبه شيء بالأنبياء وطس ، بعد مريم والشعراء .

« سورة الزمر »

لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر (ص) ، حيث قال في (ص) . (إن هو إلا ذكر للعالمين) (٨٧) ثم قال هنا (تنزيل الكتاب من الله) (١) . فكانه قيل : هذا الذكر تنزيل . وهذا تلاؤم شديد ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لا لتأمت الآيتان كالآية الواحدة .

وقد ذكر الله تعالى في آخر (ص) قصة خلق آدم ^(٢) ، وذكر في صدر هذه

(١) وردت الإشارة إلى القرون المكثبة وإهلاكهم في يس بقوله تعالى : (ألقمهم من قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون) (١) . وجاء ذلك منفصلا في الصافات في قوله : (بل عجبت ويسخرون) (١٢) إلى آخر السورة .
(٢) خلق آدم في ص قوله : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين) إلى (لاملن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) (٧١ — ٨٥) .

قصة خلق زوجه ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر وفاة النوم والموت ، ثم ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة^(١) . وقال : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) (٧٥) .

فذكر أحوال الخلق ، من المبدأ إلى المعاد ، متصلا بخلق آدم للمذكور في السورة التي قبلها .

« سورة غافر »

أقول : وجه إيلاء الحواميم السبع^(٢) سورة الزمر : تأخى المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب . وفي مصحف أبي بن كعب : أول الزمر (حم)^(٣) ، وذلك مناسبة جليلة .

ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الافتتاح بـ (حم) ، وبذكر الكتاب بعد حم ، وأنها مكية ، بل ورد في الحديث أنها نزلت جملة^(٤) . وفيها شبه من ترتيب ذوات (الر) الست^(٥) .

(١) بدأ ذكر هذه الموضوعات في الزمر في قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة

ثم جعل منها زوجها (٦) الآية . وقوله : (انك ميت وانهم ميتون (٣٠)) وقوله : (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها (٤٢) الآية . وقوله : (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا (٧١) الآيات ، الى آخر السورة .

ولذلك لو قدمت الزمر على ص ، لاختل النسق القرآني الذي أحكمه الله تعالى . الحواميم السبع هي : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والاحقاف .

(٢) الاتقان : ٢٢٢/١ نقلا عن أبي أشقة في المصاحف وفي الاصل : أن الزمر أولها جم في مصحف ابن مسعود وأثبتنا ما في الاتقان . والبرهان للزركشي : ١٣٠/١ .

(٣) لم نعتز على هذه الرواية ولم يذكرها السيوطي في الاتقان ولا الزركشي في البرهان ، ولا مصادر السنة الستة ، ولا مجمع الزوائد .

(٤) ذوات (الر) الست هي يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، (وأولها : الر) . وابراهيم ، والحجر .

فانظر ثانية الحواميم وهي فصلت ، كيف شابهت ثانية ذوات (الر) هود في
تغيير الأسلوب في وصف الكتاب . وأن في هود : (كتاب أحكمت آياته
ثم فصلت) (٢) . وفي فصلت : (كتاب فصلت آياته) (٣) . وفي سائر ذوات
(الر) (تلك آيات الكتاب) (٤) . وفي سائر الحواميم : (تنزيل الكتاب)
أو (والكتاب) (٥) .

وروينا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور : أن الحواميم
نزلت عقب الزمر ، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف : المؤمن ، ثم
السجدة ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الممتحنة ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف .
ولم يتخللها نزول غيرها (٦) . وتلك مناسبة جليلة والحمد لله فيها وضعا هكذا .

ثم ظهر لى لطيفة أخرى ، وهي : أنه في كل ربع من أرباع القرآن توالى
سبع سور مفتتحة بالحروف المقطعة . فهذه السبع مصدرة بـ (حم) . وسبع في الربع
الذى قبله فوات (الر) الست متوالية ، و (المص) الأهراف ، فإنها متصلة
بيونس على ما تقدمت الإشارة إليه . وافتتح أول القرآن بسورتين من ذلك ،
وأول النصف الثانى بسورتين (٧) .

وقال الكرماني في «المعجائب» (٨) : ترتيب الحواميم السبع لما بينها من
التشاكل الذى خصت به ، وهو : أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب

- (١) ولكن في إبراهيم (كتاب انزلناه اليك) .
(٢) ولكن في فصلت : (تنزيل من الرحمن الرحيم) . وفي الشورى : كذلك يوحى
اليك وإلى الذين من قبلك الله (١) .
(٣) الانتقان : ١٧/١ نقلًا عن أبى بكر محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه المشهور .
(٤) كان حق الكلام (بسبع سور) فنصف القرآن بالآيات في سورة الشعراء
(الانتقان : ٢٤٣/١) . وعليه يكون نصف القرآن مفتتحا بالشعراء ، وأولها
(طسم ، والنيل ، طس) والقصص (طسم) والمنكوت (الم) والروم
(الم) ولقيان (الم) والسجدة (الم) .
وإذا اعتبرنا النصف المعروف لنا فالسورتان هما (مريم ، وطه) .
(٥) هو كتاب « لباب التفسير وعجائب التأويل » لتاج القراء محمود بن حمزة
بن نصر الكرماني (خط) . ولم نعثر عليه مخطوطا ولا مطبوعا ، انظر (معجم
الأدياء ١٩/١٢٥) . وقد ذكره الكرماني في (أسرار التكرار في القرآن ص ١٨) .

أو وصفه ، مع تفاوت المقادير في الطول والقصر ، وتشا كل الكلام في النظام . انتهى .

قلت : وانظر إلى مناسبة ترتيبها ، فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر ، ومطلع فصلت التي هي ثمانية الحواميم مناسب لمطلع هود ، التي هي ثمانية ذوات (الر) ومطلع الرخرف مؤاخ لمطلع الدخان ، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف^(١)

« سورة القتال »

لا يخفى وجه ارتباط أولها بقوله في آخر الأحقاف : (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) « ٣٥ » . وانصاه وتلاحه ، بحيث أنه لو أسقطت البسمة منه ، لكان متصلا اتصالا واحدا لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة ، آخذاً بعضه بمنق بمض^(٢)

« سورة الفتح »

لا يخفى وجه حسن وضعها هنا ، لأن الفتح بمعنى النصر ، مرتب على القتال ، وقد ورد في الحديث : أنها مبيتة لما يفعل به وبالمؤمنين ، بعد إيهامه في قوله تعالى في الأحقاف : (وما أفرى ما يفعل بي ولا بكم)^(٣) « ٩ » . فكانت متصلة بسورة الأحقاف من هذه الجهة .

(١) مطلع الزمر (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . ومطلع غافر (تنزيل الكتاب من الله العزيز العظيم) . ومطلع هود (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) . ومطلع فصلت (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) . وهكذا جميع المطالع التي فكسرها المؤلف .

(٢) أول القتال : (الذين كبروا وصعدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) (١) . وسورة القتال مع هذا بجملة لموضوع سورة الاحقاف قبلها : فلاحقاف فيها الحديث من اعراض الكافرين في مختلف المصور ، وفيها دعوتهم الى الايمان بالتي هي احسن ، وقد استغففت السورة وسائل الانتاع العقلي ، واثبتت حقو اصل الفكر وجوهرهم ، فكانت سورة القتال بها فيها من جهاد ، وقواعد الحرب ، وتشريعاته مظهرة تماما مع نسخ وسائل الدعوة المليية بأية السيف .

(٣) هو قول ابن عباس . رواء منه علي بن طلحة . ولذا قال مكرمة والحسن وقادة : ان آية الاحقاف منسوخة بأية الفتح : (ليفخر لك الله ما تقدم من فنبك) الآية . قالوا : ولما نزلت قال رجل من المسلمين : فما هو فاعل بنا ؟ فنزل : (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات) الآية . انظر تفسير ابن كثير : ٢٦٠/٧ .

« سورة الحجرات »

لا يخفى تأخى هاتين السورتين [الفتح والحجرات] مع ما قبلهما ، لكونهما مدينتين ، ومشتملتين على أحكام . فذلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة^(١) . وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا^(٢) . وتلك تضمنت تشريفا له ﷺ ، خصوصا مطلعها ، وهذه أيضا في مطلعها أنواع من التشريف له ﷺ^(٣) .

« سورة الذاريات »

أقول : لما ختمت (ق) بذكر البعث ، واشتملت على ذكر الجزاء ، والجنة والنار ، وغير ذلك من أحوال القيامة ، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك لصادق ، وإن الدين — وهو الجزاء — لواقع . ونظير ذلك : افتتاح المرسلات بذلك ، بعد ذكر الوعد والوعيد والجزاء في سورة الإنسان^(٤) .

« سورة الطور »

أقول : وجه وضعها بعد الذاريات : تشابههما في المطلع والمقطع ، فإن في

-
- (١) قتال الكفار في الفتح معروف ، لأنها في فتح مكة ، وقاتل البغاة في الحجرات جاء في قوله تعالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقيت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي الى امر الله (٩) الآية .
- (٢) ختام الفتح : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما (٢٩) وافتتاح الحجرات : (يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله (١) الآية .
- (٣) تشريفه صلى الله عليه وسلم في الفتح في قوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك (٢) الآية . وتشريفه في مطلع الحجرات : (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله (١) . (ان الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله (٣) الآية . (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون (٤) .
- (٤) الوعد والوعيد في الانسان انا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالا (٤) وما بمردها واتقسم على صحة ذلك في أول المرسلات (ان ما توعدون لواقع (٧) .

مطلع كل منهما صفة حال المتقين بقوله : (إن المتقين في جنات) (١٥ ، ١٧) .
الآيات . وفي مقطع كل منهما صفة حال الكفار ، بقوله في تلك : (فويل للذين
كفروا) (٦٠) . وفي هذه : (فالذين كفروا) (٤٢) ،^(١) .

« سورة النجم »

أقول : وجه وضعها بعد الطور : أنها شديدة المناسبة لها ، فإن الطور ختمت
بقوله : (وإدبار النجوم) (٢٩) . وافتتحت هذه بقوله : (والنجم إذا
هوى) (١) .

وجه آخر : أن الطور ذكر فيها ذرية المؤمنين ، وأنهم تبع لآبائهم^(٢) ،
وهذه فيها ذكر ذرية اليهود^(٣) في قوله : (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) (٣٢) ،
ولما قال هناك في المؤمنين : (ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من
شيء) (٢١) . أي : ما نقصنا الآباء بما أخطئنا البنين ، مع نفعهم بما عمل آباؤهم .
قال هنا في صفة الكفار أو بنى الكفار : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (٣٩) ،
خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار .

وهذا وجه بين بديع في المناسبة ، من وادى التضاد .

« سورة القمر »

أقول : لا يخفى ما في توالى هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية ،
لما بين النجم والقمر من الملازمة ، ونظيره توالى الشمس والليل والضحي ،
وقبلها سورة الفجر .

(١) ومن المناسبة بين الطور والذاريات أنه تعالى ذكر تكذيب الكافرين ورد عليهم
في إيجاز في الذاريات بقوله : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول
إلا قالوا سحر أو مجنون (٥٢) وما بعدها . ثم فصل ذلك في الطور من
قوله : (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون (٢٩) إلى آخر السورة (٤٩) .
(٢) وذلك في قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم (٢١)
(٣) بل فيها ذكر للذرية كل كافر حين استخرج الله ذرية آدم من صلبه وقسمهم
فريقين : فريقا للجنة ، وفريقا للسعير . انظر (تفسير ابن كثير : ٤٣٧/٧) .

ووجه آخر ، وهو : أن هذه السورة بعد النجم كالأهراف بعد الأنعام ،
وكالصفات بعد يس ، في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في
قوله هناك : (وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم
كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى) (٥٠ - ٥٣)^(١) .

« سورة الرحمن »

أقول : لما قال سبحانه وتعالى في آخر القم : (بل الساعة موعدهم والساعة
أدهى وأمر) « ٤٦ » . ثم وصف حال الجرمين في مقر ، وحال المتقين في جنات
ونهر ، فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل ، على الترتيب الوارد
في الإجمال .

فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والإشارة إلى إدهائها ، ثم وصف للنار
وأهلها^(٢) ، والجنة وأهلها^(٣) ، ولذا قال فيهم : (ولن خاف مقام ربه جنتان)
« ٤٦ » . وذلك هو عين التقوى^(٤) . ولم يقل : لمن آمن وأطاع ، أو فهو ،
لتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل .

وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التي قبلها فله .
الحمد على ما ألهم وفهم .

« سورة الواقعة »

أقول : هذه السورة متأخية مع سورة الرحمن في أن كلا منهما في وصف

-
- (١) جاء تفصيل ذلك على الترتيب ، وزاد عليه ، في سورة القم ، من قوله :
(كُتِبَ قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) (فآخذناهم أخذ عزيز مقتدر) (٩ - ٤٢) .
(٢) وصف النار وأهلها جاء في قوله في سورة الرحمن سنفرغ لكم أيها الثقلان (إلى
اليطوفون بينها وبين حميم آن - (٣١ - ٤٤) .
(٣) ووصف الجنة وأهلها جاء في قوله : (ولن خاف مقام ربه جنتان) (٤٦) إلى
آخر السورة .
(٤) التقوى هي : خوف مقام الرب . وبذلك يتفق التفصيل هنا مع الإجمال في
قوله : (ان المتقين في جنات ونهر) في سورة القم .

القيامة ، والجنة والنار . وانظر إلى اتصال قوله هنا : (إذا وقعت الواقعة) (١) ، بقوله هناك : (فإذا أنشقت السماء) (٣٧) . ولهذا اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفي الواقعة على ذكر رج الأرض ^(١) . فكان السورتين تتلازمهما واتحادهما سورة واحدة .

ولهذا عكس في الترتيب . فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك ، وفي آخر هذه ما في أول تلك ، كما أشرت إليه في سورة آل عمران مع سورة البقرة .

فافتتح الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الإنسان ، والجان من مارج من نار ، ثم صفة القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة .

وابتداء هذه بذكر القيامة ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ، ثم خلق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم النجوم ، ولم يذكرها في الرحمن ، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر القرآن .

فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك ، وكرد العجز على الصدر .

« سورة الحديد »

قال بعضهم : وجه اتصالها بالواقعة : أنها قدمت بذكر التسييح ، وتلك ختمت بالأمر به .

قلت : وتماه : أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به ، وكأنه قما (فسبح باسم ربك العظيم) لأنه (سبحانه) ما في السموات والأرض)

(١) وذلك في قوله : (إذا رجت الأرض رجاً) (٤) .

« سورة المجادلة »

أقول : لما كان في مطلع الحديد ذكر صفاته الجليلة ، ومنها : الظاهر والباطن ، وقال : (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم) (٤) . افتتح هذه بذكر أنه سمع قول المجادلة التي شكت إليه ﷺ . ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها حين نزلت : « سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، إني لفي ناحية البيت لأعرف ما تقول » (١)

وذكر بعد ذلك قوله : (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) (٧) . وهو تفصيل لقوله : (وهو معكم أينما كنتم) (٤) .

وبذلك تعرف الحكمة في الفصل بها بين الحديد والحشر ، مع تأخيرها في الافتتاح به (سبح) .

« سورة الحشر »

آخر سورة المجادلة نزل فيمن قتل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر^(٢) . وأول الحشر نازل في غزوة بني النضير^(٣) ، وهي عقبها ، وذلك نوع من المناسبة والربط .

وفي آخر تلك : (كتب الله لأهلين أنا ورسلي) (٢١) . وفي أول هذه :

-
- (١) أخرجه البخاري في التوحيد : ١٤٤/٦ وابن ماجه في المقدمة : ٦٧/١ والاسم أحمد في المسند : ٤٦/٦ . وابن جرير في التفسير : ٥/٢٨ ، ٦ .
(٢) وهو قوله تعالى : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) (٢٢) . وقيل هم : أبو عبيدة قتل أباه يوم بدر ، وأبو بكر هم بقتل لده عبد الرحمن ، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيدا ، وعمر قتل قريبا له ، وحيزة وعلى وعبيدة بن الحارث قتلوا عقبة وشيبة والوليد بن عتبة (طبقات ابن سعد : ٣/٢٠٠) .
(٣) وذلك قوله : (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) (٢) .

وأخرج البخاري في التفسير : ١٨٣/٦ ومسلم في التفسير : ٢٤٥/٨ من ابن عباس أو أول الحشر أنزلت في بني النضير .

(فَأَنذَرْتُهُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) (٢٢) .
وفي آخر تلك ذكر من حاد الله ورسوله^(١) ، وفي أول هذه ذكر من
شاق الله ورسوله^(٢) .

« سورة المتحنة »

أقول : لما كانت سورة الحشر في المعاهدين من أهل الكتاب ، عقبته
بهذه ، لاشتغالها على ذكر المعاهدين من المشركين ، لأنها نزلت في صلح الحديبية^(٣)
ولما ذكر في الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً ، ثم موالاة الذين من
أهل الكتاب ، افتتح هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ،
لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك . وكرر ذلك وبسطه ، إلى أن ختم به ، فكانت
في غاية الاتصال ، ولذلك فصل بها بين الحشر والصف ، مع تأخيرها في الافتتاح
بـ (سبح) .

« سورة الصف »

أقول : في سورة المتحنة ذكر الجهاد في سبيل الله ، وبسطه في هذه
السورة أبلغ بسط .

« سورة الجمعة »

أقول : ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما ذكر في سورة

-
- (١) وذلك قوله : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ (٢٢) الآية .
(٢) وذلك قوله : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٤) الآية .
(٣) نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، لما أخبر المشركين بعزم النبي صلى الله عليه
وسلم على فتح مكة بعد أن نقض المشركون صلح الحديبية . (البخاري
في التفسير : ١٨٥/٦ ، ١٨٦ ، والترمذي في التفسير : ١٩٨/٩ - ٢٠٢ بتحفة
الاحوذى ومسند الإمام أحمد : ٧٩/١ ، ٨٠) .

الصف حال موسى مع قومه ، وأذا هم له ، ناهيا عليهم ذلك^(١) ، ذكر في هذه السورة حال الرسول ﷺ ، وفضل أمته ، تشریفاً لهم ، ليظهر فضل ما بين الأمتين ، ولذا لم يعرض فيها لذكر اليهود .

وأيضاً لما ذكر هناك قول عيسى : (ومبشراً يرسل يأتى من بعدى اسمه أحمد) «٦» . قال هنا : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) «٢» . إشارة إلى أنه الذى بشر به عيسى . وهذا وجه حسن فى الربط .

وأيضاً لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماء تجارة ، ختم هذه بالأمر بالجمعة ، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية .

وأيضاً : فنلك سورة الصف ، والصفوف تشرع فى موضعين : القتال ، والصلاة ، فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة ، وهى الجمعة ، لأن الجمعة شرط فيها ، دون سائر الصلوات .
فهنه وجوه أربعة فتح الله بها .

« سورة المنافقون »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون ، وهذه ذكر فيها أضدادهم ، وهم المنافقون . ولهذا أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين ، وبسورة المنافقين يفزع بها المنافقين^(٢) .

(١) وذلك فى قوله : (واذا قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى (٥) الآية . وقال فى الصف عن بنى اسرائيل : انهم كذبوا عيسى ، وكذبوا على الله ، وارادوا أن يطفئوا نور الله ، فى الآيات (٦ - ٩) . ثم ذكر هنا تعليل هذا التكذيب بالغيبة ، وأبطل حجتهم فى أنهم شعب الله المختار (٥ - ٧) .
(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد : ١٩١/٢ عن أبى هريرة . وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط . وقال : أسنده حسن . وفيه : (بقرع) . بالثقاف والراء المهمة . وأخرج مثله مختصراً عن أبى مبيدة الخولانى وعزاه للطبرانى فى الكبير .

وتعالم المناسبة أن السورة التي بعدها فيها ذكر المشركين ، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى^(١) . والتي قبلها وهي الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين^(٢) . والتي قبلها وهي الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب^(٣) ، فإنها نزلت في بني النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا .

وبذلك انضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الست هكذا ، لاشتغالها على أصناف الأمم ، وفي الفصل بين المسبحات بغيرها^(٤) لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من غيره . وإيلاء سورة المؤمنين بسورة المنافقين أنسب من غيره .

فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التي هي نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير ، فله الحمد على ما فهم وألم .

هذا وقد ورد عن ابن عباس في ترتيب النزول : أن سورة التغابن نزلت عقب الجمعة^(٥) ، وتقدم نزول سورة « المنافقون » فما فصل بينهما إلا لحكمة والله أعلم .

« سورة التغابن »

أقول : لما وقع في آخر سورة المنافقون : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت) « ١٠ » الآية . عقب بسورة التغابن ، لأنه قيل في معناه : **يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ يَا أَيُّهُمُ الْغَيْبُ** وقد جمع مالا ، ولم يعمل فيه خيراً ، فأخذته وارثه

-
- (١) وذلك في قوله : (ألم ياتكم نبياً الذين كفروا من قبل) الى (وذلك على الله يسير - (٥ - ٧) .
 (٢) وذلك في الآيات (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) .
 (٣) وذلك في الآيتين (٨ ، ٩) .
 (٤) يعني الفصل بين الحشر ، وأولها : سبح . وبين التغابن وأولها : يسبح ، بالممتحنة والصف والجمعة والمنافقون .
 (٥) الانتقان : ٩٧/١ . وهو عن جابر بن زيد أيضاً . وجابر أحد تلمذة التابعين بالقرآن .

بسهولة ، من غير مشقة في جمعه ، فأنفق في وجوه الخير ، فالجامع محاسب معذب مع تعب في جمعه ، والوارث منعم مثاب ، مع سهولة وصوله إليه . وذلك هو التغابن ^(١) .

فارتباطه بآخر السورة المذكورة في غاية الوضوح . ولهذا قال هنا :
(وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (١٦) .
وأيضاً في آخر تلك : (لاتلكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) (٩) .
وفي هذه : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) (١٥) . وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة ، ولذا ذكرت على ترتيبها ^(٢) .

وقال بعضهم : لما كانت سورة المنافقون رأس ثلاث وميتين سورة ، أشير فيها إلى وفاة النبي ﷺ بقوله : (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) (١١) .
فانه مات على رأس ثلاث وميتين سنة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن في فقهه ﷺ ^(٣) .

« سورة الطلاق »

أقول : لما وقع في سورة التغابن : (إن من أزواجكم وأولادكم هدواً لكم) (١٤) . وكانت عداوة الأزواج تفضي إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضي إلى القسوة ، وترك الإنفاق عليهم ، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق ، والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسبيهم .

« سورة التحريم »

أقول : هذه السورة متأخية مع التي قبلها بالافتتاح بخطاب النبي ﷺ ،

(١) تفسير الكواشي : ٤ / ورقة ١١٢ ا . خطأ الازهرية .
(٢) يعني الاموال أولا ، والاولاد ثانيا ، وفي كلتا السورتين .
(٣) أورد السيوطي هذا القول في الاتقان : ٣٠ / ٤ غير معزوكما هو ههنا ، كدليل على انه ما من شيء الا ويمكن استخراجه من القرآن .

وتلك مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإيلاء . وبينهما من المناسبة ملا يخفى .

ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة ، ذكر في هذه خصومة نساء النبي ﷺ ، إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة ، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة : آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران^(١)

« سورة تبارك »

أقول : ظهر لي بعد الجهد : أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتى نوح ولوط الكافرتين ، وامرأة فرعون المؤمنة ، أفتحت هذه السورة بقوله : (الذى خلق الموت والحياة) (٢) . مراداً بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال^(٢) ، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته ، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط ، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين ، وآمنت امرأة فرعون ، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد ، لما سبق في كل من القضاء والقدر .

ووجه آخر ، وهو أن « تبارك » متضل بقوله في آخر الطلاق : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) (١٢) . فزاد ذلك بسطاً في هذه الآية : (الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) (إلى قوله :) (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) (٣ - ٥) وإنما فصلت بسورة التحريم لأنها كاللجنة لسورة الطلاق .

« سورة ن »

أقول : لما ذكر سبحانه في آخر تبارك التهديد بتفوير الماء^(٣) ، استظهر

(١) وهما في قوله تعالى : (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون (١١) ، ١٢) .

— (١٠١) .

(٢) السلمى . حقائق التفسير ورقة ٢٠١ . خط .

(٣) ورد في قوله تعالى : (قل أرايتم ان أصبحهاؤكم غوراً من يأتىكم بهاء معين (٢٠) . وتفوير الماء : جفافه .

عليه في هذه السورة بإذهاب تمر أصحاب البستان في ليلة يطلق عليه فيها ، وم نائمون ، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق^(١) . وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة ، فلما الذي هو لطيف وقيق أقرب إلى الإذهاب ، ولهذا قال : (وم نائمون . فأصبحت كالصريم) « ١٩ ، ٢٠ » . وقال هناك : (إن أصبح ملؤكم غوراً) « ٣٠ » . إشارة إلى أنه يسرى عليه في ليلة كما سرى على الثمرة في ليلة .

« سورة الحاقة »

أقول : لما وقع في «ن» ذكر يوم القيامة مجمل في قوله : (يوم يكشف عن ساق) « ٤٢ » . الآية . شرح ذلك في هذه السورة بناء على هذا اليوم ، وشأنه العظيم^(٢) .

« سورة سأل »

أقول : هذه السورة كالتمتة لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار^(٣) .

وقال ابن عباس : إنها نزلت عقب سورة الحاقة^(٤) ، وذلك أيضاً من وجوه المناسبة في الوضع .

« سورة نسوح »

أقول : أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال في (سأل) : (إننا لقادحون . على أن نبذل خيراً منهم) « ٤١ » . عقبه

(١) جاء هذا في سورة العنكبوت بقوله تعالى : (أنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) إلى (أنا كذب طافين ١٧ - ٢١) .
(٢) وذلك من أول السورة إلى قوله : (لا ياكله إلا الخاطئون) (٣٧) .
(٣) وذلك من أول السورة إلى قوله : (وجمع نفوسي) (١٨) .
(٤) الاتقان : ٩٧/١ .

بقصة قوم نوح ، المشتعلة على إبادتهم عن آخرهم ، بحيث لم يبق منهم ديار
وبدل خيراً منهم ، فوقع الاستدلال لما ختم به تبارك .

هذا مع تأخى مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرين^(١) .

« سورة الجن »

أقول : قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها ، فلم يظهر لي سوى أنه
قال في سورة نوح : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً)
(١٠ ، ١١) . وقال في هذه السورة : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم
ماء غدقا) (١٦) . وهذا وجه بين في الارتباط^(٢) .

« سورة المزمل »

أقول : لا ينبغي وجه اتصال أولها : (قم الليل) (٢) . بقوله في آخر تلك :
(وأنه لما قام عبد الله يدعوه) (١٩) . وبقوله (وأن المساجد لله) (١٨)^(٣) .

« سورة الدثر »

أقول هذه متأخية مع السورة التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي ﷺ ،
وصدر كليهما نازل في قصة واحدة .

(١) العذاب في مطلع سأل من أول السورة : سأل سائل بغضب واقع للكافرين ليس له

دافع (١ ، ٢) . وفي سورة نوح : أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب اليم (١) .

(٢) ومن المناسبة بين السورتين : أنه تعالى ذكر في نوح : (رب انهم عصوني وأتبعوا

من لم يزد به ماله وولده الا خساراً) (٢٢) . ومضى في بيان كفرهم وضلالهم ،

الى أن دعا عليهم نوح : ثم بين في أول الجن : انهم كالانس في الايمان والكفر ،

وأن لكمار الجن اتصالاً بكفار الانس ، فقال تعالى : (وأنه كان رجال من الانس

يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) (٦) . (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) (١٤) الآية .

فذلك كما طرائق قديدا (١١) . (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) (١٤) الآية .

فكانت هذه السورة لبيان الصلة بين الجن والانس ، وبيان المقارنة بينهما .

(٣) ومن المناسبة أنه تعالى لما قال في نهاية الجن : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه

احداً . الا من ارتضى من رسول) (٢٦ ، ٢٧) . افتتح المزمل بذكر بداية ارسال

النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كلف به من شعائر المعبودية والعبادة والدعوة .

وفلك لان النبي صلى الله عليه وسلم بحث بين يدي الساعة كما جاء في السنة ،

وقد قال تعالى في الجن : (وان ادري اقريب ام بعيد ما توعدون) (٢٥) . فكانه

قال : هذه المزمل علم من اعلامها ، فهو الذي الله ليظهره على غيبه ،

وأنه بين يدي الساعة .

وقد ذكر عن ابن عباس في ترتيب نزول النور : أن المدثر نزلت عقب
المزمل . أخرجه ابن الضريس . وأخرجه غيره عن جابر بن زيد ^(١) . .

« سورة القيامة »

أقول : لما قل سبحانه في آخر المدثر . (كلا بل لا يخافون الآخرة ٥٣)
بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ، ذكر في هذه
السورة الدليل على البعث ، ووصف يوم القيامة ، وأحواله ، وأحواله ، ثم ذكر
ما قبل ذلك من مبدأ الخلق . فذكرت الأحوال في هذه السورة على عكس
ما هي في الواقع .

« سورة الانسان »

أقول : وجه اتصالها بسورة القيامة في غاية الوضوح . فإنه تعالى ذكر في
آخر تلك مبدأ خلق الإنسان من نقطة ، ثم ذكر مثل ذلك في مطلع هذه
السورة ، مفتتحاً بخلق آدم أبي البشر .

ولما ذكر هناك خلقه منهما ، قل هنا . (نجعل منه الزوجين الذكر والأنثى)
٣٩٨ . ولما ذكر هناك خلقه منها ، قل هنا . (فجعلناه سمياً بصيراً) ٣٩٩ ،
فعلق به غير ما علق بالأول ، ثم وصف عليه حياة السيل ، وتلقبه إلى شاكرو
وكفور ، ثم أخذ في جزاء كل .

ووجه آخر ، هو أنه لما وصف حل يوم القيامة في تلك السورة ، ولم
يصف فيها حل النار والجنة ، بل ذكرها على سبيل الإجمال ، فصلها في هذه

(١) وفيها كذلك زيادة اعلام بالساعة وأحوالها في قوله : (فإذا نقر في المقيور) الى
(فما تنفعهم شفاعة الشاكرين ٨ - ٤٨) .

السورة ، وأظن في وصف الجنة ^(١) ، وذلك كله شرح لقوله تعالى هناك (وجوه يومئذ ناضرة) — (٢٢) . وقوله هنا . (إنا أعدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) (٤٤) . شرح لقوله هناك . (تظن أن يفعل بها فاقرة) (٢٥) .
وقد ذكر هناك . (كلا بل يحبون العاجلة . ويندرون الآخرة) (٢٠، ٢١) ، وذكر هنا في هذه السورة . (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويندرون وراءهم يوما ثقيلا) (٢٧) . وهذا من وجوه المناسبة ^(٢) ..

« سورة المرسلات »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها . أنه تعالى لما أخبر في خاتمها . أنه . (يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما) (٣١) ، افتتح هذه بالقسم على أن ما يوعدون واقع ، فكان ذلك تحقيقا لما وعد به هناك المؤمنين ، وأوعد الظالمين .

ثم ذكر وقته وأشرطه بقوله : (فإذا النجوم طمست) (٨) إلى آخره .
ويحتمل أن تكون الإشارة بما يوعدون إلى جميع ما تضمنته السورة من وعيد للكافرين ، ووعد للأبرار ^(٣) .

(١) تفصيل أحوال المؤمنين في الجنة مفصل هنا من قوله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كفورا) إلى : (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) (٥ - ٢٢) .

(٢) ومن وجوه المناسبة بين سورة الإنسان وسورة القيامة : أنه تعالى فصل في القيامة أحوال الكافرين عند الموت وما يعمانون من قهر وندم في قوله : (كلا إذا بلغت التراقي . وقيل من راق) إلى : (ثم أولى لك غاوى) — (٢٦ - ٣٥) وفي هذه السورة فصل أحوال المؤمنين في حياتهم ، والتي استوجبوا بها النعيم الموصوف في السورة . وذلك من قوله : (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) إلى (فواقهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) ١١٧ ، .
(٣) وهناك مناسبة بين القيامة والإنسان والمرسلات من ناحية خلق الإنسان . ففي القيامة قال : (ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل

منه الزوجين الذكر والانثى) (٣٧ - ٣٩) فذكر بداية الخلق . وفي الإنسان تدرج إلى الحديث عن اتمام بناء الإنسان حتى صار شديد الأمر (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم (٢٨) الآية ولما كانت قوة الإنسان مظنة كبريائه ، ذكره في المرسلات بهانة أصله : (ألم نخلقكم من ماء مهين) (٢٠) .
ومعاني السور الثلاث تدور حول الأصول . ولذلك قال في المرسلات : (فان كان لكم كيد فكيدون) (٣٦) . اعلاما بقره للمباد .

« سورة عم »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : تناسبها معها في الجمل . ففي تلك : (ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين) (١٧ ، ١٨) . (ألم نخلقكم من ماء مهين) (٢٠) . (ألم نجعل الأرض كفافاً) (٢٥) . إلى آخره . وفي عم : (ألم نجعل الأرض مهاداً) (٦) إلى آخره . فذلك نظير تناسب جمل : ألم نشرح ، والضحي ، بقوله في الضحي : (ألم يجعلك يتيماً فأوى) (٦) إلى آخره . وقوله : (ألم نشرح لك صدرك) (١) . مع اشتراك هذه السورة والأربع قبلها في الاشتغال على وصف الجنة والنار ، ماعدا المدثر في الاشتغال على وصف يوم القيامة وأهواله ، وعلى ذكر بدء الخلق ، وإقامة الدليل على البعث .

وأيضاً في سورة المرسلات : (لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل) (١٢ - ١٤) . وفي هذه السورة : (إن يوم الفصل كان ميقاتاً . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً) (١٧ ، ١٨) إلى آخره . فكان هذه السورة شرح يوم الفصل المجمل ذكره في السورة التي قبلها^(١) .

« سورة عبس »

أقول : وجه وضعها عقب النازعات مع تأخيرها في المقطع ، لقوله هناك : (فإذا جاءت الطامة) (٣٤) . وقوله هنا : (فإذا جاءت الصاخة) (٣٣) . وهما من أسماء يوم القيامة^(٢) .

(١) لم يذكر المؤلف سورة النازعات ، ومناسبتها لما قبلها . ونرى والله أعلم : أنه طال وصف يوم القيامة في النبأ ، ثم ذكر في النازعات حجة من انكرها ، ورد عليها ، فقال : (يقولون أننا لمردودون في الحافرة . أنذا كنا عظاماً نخرة) (١٠ - ١١) . وذكر ندامتهم على تقريطهم بقوله : (قلوا تلك افن كرة خاسرة ١٢) . ثم أكد قدرته على إحياء الموتى ، وأقام الدليل عليها في بقية السورة .

(٢) لم يذكر المؤلف سر الترتيب ونقول : ان الطامة من الطم ، من طمط البئر ، إذا كبستها ، وسميت به القيامة لأنها تطم كل شيء . والصاخة من الصخ ، وهو الصوت الشديد ، وسميت به لأنه بشدة صوتها يجثو لها الناس . وخصت النازعات بالطم لأنه قبل الصخ ، فكانت عبس لاحقة للنازعات بطبيعتها . انظر (أسرار التكرار في القرآن ٢٠١) .

« سورة التكوير »

أقول : لما ذكر في عبس : (فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه)
(٣٤ ، ٣٥) الآيات . ذكر يوم القيامة كأنه رأى عين . وفي الحديث : « من
سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : (إذا الشمس كورت) .
و (إذا السماء انفطرت) . و (إذا السماء انشقت) »^(١) .

« سورة الانفطار »

أقول : قد عرف مما ذكرت وجه وضعها هنا ، مع زيادة تأخيرها في
المقطع^(٢) .

« سورة المطففين »

أقول : الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التي هي نظيرتها من
خمس أوجه : الافتتاح بـ (إذا السماء) ، والتخلص بـ (يا أيها الإنسان) ، وشرح
حال يوم القيامة ، ولهذا ضمت بالحديث السابق ، والتناسب في المقدار ،
وكونها مكية .

وهذه السورة مدنية ، ومفتتحها ومخلصها غير مالمها ، لنكتة ألهمنيها الله .
وذلك أن السور الأربع لما كانت في صفة حال يوم القيامة ، ذكرت على ترتيب
ما يقع فيه .

فغالب ما وقع في التكوير ، وجميع ما وقع في الانفطار ، وقع في صدر يوم

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٧٢/٢ . والترمذي في التفسير ٢٥٢/٩ ، ٢٥٣
بتحفة الاحوذى .

(٢) مقطع التكوير : (وما تشاعون الا أن يشاء الله رب العالمين) (٢٩) . ومقطع
الانفطار : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) (١٩) وهما بمعنى .

القيامة ، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، ومقاساة العرق والأهوال ، فذكره في هذه السورة بقوله : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) (٦٠) . ولهذا ورد في الحديث : « يقوم أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه » (١) .

ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى ، فتنشر الكتب ، فأخذ باليمن ، وأخذ بالشمال ، وأخذ من وراء الظهر ، ثم بعد ذلك يقع الحساب .

هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث ، فناسب تأخير سورة الانشقاق التي فيها إتيان الكتب والحساب (٢) ، عن السورة التي قبلها ، والتي فيها ذكر الموقف عن التي فيها مبادئ يوم القيامة .

ووجه آخر ، وهو : أنه جل جلاله لما قال في الانفطار : (وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين) - (١١ ، ١٢) . وذلك في الدنيا ، ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحفاظان ، وهو : كتاب مرقوم جعل في عليين ، أوفى مسجين ، وذلك أيضاً في الدنيا ، لكنه عقّب بالكتابة ، إما في يومه ، أو بعد الموت في البرزخ كما في الآثار . فهذه حالة ثانية في الكتاب ذكرت في السورة الثانية .

وله حالة ثالثة متأخرة فيها ، وهي أخذ صاحبه باليمن أو غيرها ، وذلك يوم القيامة ، فناسب تأخير السورة التي فيها ذلك ، عن السورة التي فيها الحالة الثانية ، وهي الانشقاق ، فله الحمد على ما من بالفهم لأسرار كتابه .

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٢٠٧/٦ عن ابن عمر . وأحد في المسند مع اختلاف في اللفظ ١٣/٢ ، ١٩ ، وعلى المطابقة ٣١/٢ .

(٢) وذلك في قوله : (فلما من أوتى كتابه ببينه) إلى : (ويصلى سميراً) (٧ - ١٢) .

ثم رأيت الإمام فخر الدين قال في سورة المطففين أيضاً : اتصال أولها
بآخر ما قبلها ظاهر ، لأنه تعالى بين هناك أن يوم القيامة من صفته : (لا تملك
نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) . وذلك يقتضى تهديداً عظيماً للعصاة ،
فلهذا أتبعه بقوله : (ويل للمطففين) الآيات .

« سورة الانشقاق »

قد استوفى الكلام فيها في سورة المطففين .

« سورة البروج والطارق »

أقول : هما متآخيتان فقرنتا ، وقدمت الأولى لطولها ، وذكرنا بعد
الانشقاق للمؤاخاة في الافتتاح بذكر السماء ، ولهذا ورد في الحديث ذكر
السموات مراداً بها السور الأربع^(١) ، كما قيل : المسبحات .

« سورة الأعلى »

أقول : في سورة الطارق ذكر خلق [النبات] والإنسان في قوله : (والأرض
ذات الصدع) (١٢) [وقوله : (فلينظر الإنسان مم خلق) إلى (إنه على رجعه
لقادر) — (٦ — ٨)] . وذكره في هذه السورة في قوله : (خلق فسوى) (٢) .
وقوله في النبات : (والذي أخرج المرعى . فجعله غناء أحوى) (٣ ، ٤) .
وقصة النبات في هذه السورة أبسط ، كما أن قصة الإنسان هناك أبسط . نعم ،
مافي هذه السورة أعم ، من جهة شموله للإنسان ومساثر المخلوقات .

« سورة الفاتحة »

أقول : لما أشار سبحانه في سورة الأعلى بقوله : (مبدئ من يخشى .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٢٧/٢ من أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقرأ بالسور في العشاء . يعنى : السور الأربع المفتحة بذكر السماء .

ويتجنبها الأشقي . الذى يصلى النار الكبرى) إلى قوله : (والآخرة خير وأبقى)
 « ١٠-١٧ » . إلى المؤمن والكافر ، والنار والجنة إجمالاً ، فصل ذلك فى هذه
 السورة . فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما ، على نمط
 ما هناك ، ولذا قال [هنا] : (عاملة ناصبة) « ٣ » . فى مقابل : (الأشقي)
 « ١٠ » [هناك] وقال [هنا] (تصلى ناراً حامية) « ٤ » إلى : (لا يسمن
 ولا يغنى من جوع) « ٧ » . فى مقابلة : (يصلى النار الكبرى) « ١٢ » [هناك] .
 ولما قال [هناك] فى الآخرة : (خير وأبقى) « ١٦ » ، بسط [هنا] صفة الجنة
 أكثر من صفة النار ، تحقيقاً لمعنى الخيرية .

« سورة الفجر »

أقول : لم يظهر لى من وجه ارتباطها سوى أن أولها كالإقسام على صحة
 ماختم به السورة التى قبلها ، من قوله جل جلاله : (إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا
 حسابهم) « ٢٥-٢٦ » . وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد . كما أن أول
 الذاريات قسم على تحقيق مافى (ق) ، وأول المرسلات قسم على تحقيق مافى (عم)
 هذا مع أن جملة (ألم تر كيف فعل ربك) « ٦ » هنا ، مشابهة لجملة
 (أفلا ينظرون) « ١٧ » هناك^(١) .

(١) بل هناك وجوه ارتباط أوضح مما ذكر المؤلف . وذلك : أنه تعالى ذكر فى الفاشية
 صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما ذكر فى سورة الاعلى . ثم زاد الأمر
 تفصيلاً فى الفجر بذكر أسباب عذاب أهل النار ، فضرب لذلك مثلاً يقوم عاد ،
 وقوم فرعون ، فى قوله : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) إلى (أن ربك لبالمرصاد)
 (٦ - ١٤) . ثم ذكر بعض عناصر طغيانهم فى قوله : (كلا بل لا تكرمون البيت)
 (١٧) وما بعدها : فكانت هذه البسورة بمثابة إقامة الحجة عليهم .

وكذلك جاء فى الفاشية : (إنما أنت بذكر لست عليهم بمسيطر (٢١-٢٢) .
 ثم ذكر فى الفجر مادة تذكر من كان قبهم من الكفار ، ثم أخذ الله إياهم فى الدنيا ،
 وأنه سيعذبهم فى الآخرة ، وأن النعم لن ينفعهم شيئاً ، فقال : (يومئذ يتذكر ،
 الاتصان وائى له الذكرى . يقول يا ليتنى قصدت لحياتى (٢٣ ، ٢٤) .

« سورة البلد »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها . أنه لما ذم فيها من أحب المال ، وأكثر التراث ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال ، من فك الرقبة ، والإطعام في يوم ذى مغفرة^(١) .

« سورة الشمس والليل والضحى »

أقول : هذه الثلاثة حسنة التماسق جداً ، لما في مطالعها من المناسبة ، لما بين الشمس والليل والضحى من الملازمة ، ومنها سورة الفجر ، لكن فصلت بسورة البلد لنسكتة أهم ، كما فصل بين الانفطار والانشقاق وبين المسبحات ، لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول ، إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وآكد في المناسبة .

ثم إن سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد ، فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، أراد الفريقين في سورة الشمس على سبيل الفذلكة . فقوله [في الشمس] . (قد أفلح من زكاها) ٩٠ . هم أصحاب الميمنة في سورة البلد ، وقوله : (وقد خاب من دساها) ١٠١ [في الشمس] ، هم أصحاب المشأمة في سورة البلد ، فكانت هذه السورة فذلكة تفصيل تلك السورة : ولهذا قال الإمام : المقصود من هذه السورة . الترغيب في الطاعات ، والتحذير من المعاصي .

ونزيد في سورة الليل : أنها تفصيل لإجمال سورة الشمس ، فقوله . (فأما

(١) ومن التناسب أيضا بين هذه السور وسابقتها : أنه تعالى لما ذكر في تلك ابتلاء الإنسان بضيق الرزق بسبب عدم إطعام المسكين ، وعدم إكرام اليتيم ، ونهى عليه حب المال ، ذكر في هذه نعمة يوم القيامة ، وتذكروا حبس المال ، وذلك حين يقول : : (يا ليتنى قدمت لحياتى) (٢٤) .

من أعطى واتقى) «٥» وما بعدها ، تفصيل (قد أفلح من زكاهما) . وقوله :
(وأما من بخل واستغنى) «٨» الآيات ، تفصيل قوله . (وقد خاب من دساها) .
ونزيد في سورة الضحى : أنها متصلة بسورة الليل من وجهين . فإن فيها .
(وإن لنا للآخرة والأولى) «١٣» . وفي الضحى : (وللآخرة خير لك من
الأولى) «٤» . وفي الليل . (ولسوف يرضى) «٢١» . وفي الضحى . (ولسوف
يعطيك ربك فترضى) «٥» .

ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه ﷺ ، افتتحت بالضحى ، الذى
هو نور . ولما كانت سورة الليل سورة أبى بكر ، يعنى : ماعدا قصة البخیل^(١) ،
وكانت سورة الضحى سورة محمد ، عقب بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ، ليعلم
ألا واسطة بين محمد وأبى بكر .

« سورة ألم نشرح »

أقول : هى شديدة الاتصال بسورة الضحى ، لتناسبهما في الجمل . ولهذا
ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما^(٢) . قال الإمام :
والذى دهاهم إلى ذلك هو : أن قوله : (ألم نشرح) كالمطف على : (ألم يجدك
يتيا قآوى) «٦» [في الضحى]^(٣) .

قلت : وفي حديث الإسراء أن الله تعالى قال : « يا محمد ، ألم أجذك

-
- (١) الذى نزل في أبى بكر من هذه السورة قوله تعالى : (فأما من أعطى واتقى)
الى (فسنيسره لليسرى) . أخرج ابن جرير أنه كان يعتقد على الاسلام بمسكة
عجائز ونساء اذا أسلمن فلاه أبوه ، فنزلت تفسير ابن جرير الطبرى : ١٤٢/٧٠)
(٢) نقل هذا القول فخر الدين الرازى في تفسيره عن طاووس وعمر بن عبد العزيز
(تفسير سورة الضحى) .
(٣) هى كالمطف في المعنى لا في اللفظ . ثم ان هذه السورة شرح لسابقتها ، فشرح
المصدر هناك ، مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التى هى : الإيواء بعد
البيت ، والهداية بعد الضلال ، والفنى بعد العميلة . فذلك كلها من عوامل
انشراح الصدر للآيمان ، لا سيما وقد جاءت بعد وعد بالعطاء حتى يرضى الرسول .

يتيا فأويت ، وضالا فهديت ، وعائلا فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ،
وحططت هناك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت ، الحديث .
أخرجه ابن أبي حاتم^(١) . وفي هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى .

« سورة التين »

أقول : لما تقدم في سورة الشمس : (ونفس وما سواها) (٣) . فصل
في هذه السورة بقوله : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل
سافلين) (٤ ، ٥) إلى آخره .

وأخرت هذه السورة لتقدم ماهو أنسب بالتقديم من السور الثلاث^(٢) ،
واتصالها بسورة البلد لقوله : (وهذا البلد الأمين) (٣) . وأخرت لتقدم ماهو
أولى بالمناسبة مع سورة الفجر^(٣) .

لطيفة :

نقل الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري في « لطائف المنن » عن الشيخ
أبي العباس المرسى ، قال قرأت مرة : (والتين والزيتون) إلى أن انتهيت إلى
قوله : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين) (٤ ، ٥) .
ففكرت في معنى هذه الآية ، فألهمني الله أن معناها : لقد خلقنا الإنسان في أحسن
تقويم روحا وعقلا ، ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى^(٤) .

قلت : فظهر من هذه المناسبة وضعها بعد (ألم نشرح) . فإن تلك أخبر

-
- (١) الحديث ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم : ٤٥٢/٨
(٢) يعنى (الليل ، والضحى ، والم نشرح) . فان مناسبتها متوالية هكذا اهم من
تقديم التين بعد الشمس .
(٣) يعنى ان اتصال سورة الشمس بالبلد ، واتصال البلد بالفجر ، اولى من اتصال
التين بالبلد لمجرد ذكر (البلد في كليهما) .
(٤) لطائف المنن ص ١١٨ . المطبعة الفخرية ١٩٧٢ القاهرة .

فيها من شرح صدر النبي ﷺ ، وذلك يستدعى كمال عقله وروحه ، فكلاهما في القلب الذي محله الصدر ، وعن خلاصه من الوزر الذي ينشأ من النفس والهوى ، وهو معصوم منهما ، وعن رفع الذكر ، حيث نزه مقامه عن كل مؤرم فلما كانت هذه السورة في هذا العلم الفرد من الإنسان ، أعقبها بسورة مشتملة على بقية الأناسي ، وذكر ما خامرهم في متابعة النفس والهوى .

« سورة العلق »

أقول : لما تقدم في سورة التين بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم ، بين هنا أنه تعالى : (خلق الإنسان من علق) (٢) . وذلك ظاهر الاتصال ، فالأول بيان العلة الصورية ، وهذا بيان العلة للمادية (١) .

« سورة القدر »

قال الخطابي : لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ على القرآن ، ووضعوا سورة القدر عقب العلق ، استدلووا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) (١) . الإشارة إلى قوله . (اقرأ) (٢) . قال القاضي أبو بكر بن العربي . وهذا بديع جداً (٣) .

- (١) أقول : ومن المناسبة بين التين والعلق .
(١) أنه تعالى لما قال في آخر التين : (اليس الله بأحكم الحاكمين) ..
بين في أول العلق أنه تعالى مصدر علم العباد بحكمته . فبين أنه « علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . وصدر ذلك بالامر بالقراءة ، واستفتاحها باسمه دائماً ، لتكون للإنسان عوناً على كمال العلم بحكمة أحكم الحاكمين ؛
(ب) لما ذكر في التين خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ورده إلى أسفل سافلين . بين في العلق تفصيل الحالين وأسبابهما من أول قوله : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى (٦ ، ٧) . إلى « ألم يعلم بأن الله يرى (١٤) .
(٢) الخطابي هو : أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان . له شرح سنن أبي داود وبيان أعجاز القرآن . توفي سنة ٢٨٨ (وفيات الأعيان : ١ / ١٦٦) . والنقل من (البرهان لأبي جعفر بن الزبير) كما قال السيوطي « الاقتان : ٢ / ٢٨٢) .
(٣) أقول : وهناك مناسبة أخرى خفية . هي أنه تعالى لما ختم العلق بالامر بالسجود والاقتراب من الله ، وكان المقصود من الاقتراب : التعرض للرحمة الفائضة من الله على المصلين ، والصلاة لا تكون الا بقرآن ، ذكر في أول هذه السورة أن القرآن رحمة في ذاته ، ورحمة في الزمان الذي نزل فيه وهو ليلة القدر التي تنزل الملائكة فيها بالروح والسلام على الكون .

« سورة لم يكن »

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها ، كأنه لما قال سبحانه :
(إنا أنزلناه) (١) . قيل : لم أنزل ؟ فقيل . لأنه لم يكن الذين كفروا منفيين
عن كفرهم ، حتى تأتيهم البينة ، وهو رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . وذلك
هو المنزل .

وقد ثبتت الأحاديث بأنه كان في هذه السورة قرآنٌ نسخ رسمه وهو :
إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم وادياً لا يتغنى
إليه الثاني ، ولو أن له الثاني لا يتغنى إليه الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم
إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب (٢) .

وبذلك تشتد المناسبة بين هذه السورة وبين ما قبلها ، حيث ذكر هناك
إنزال القرآن ، وهنا إنزال المال ، وتكون السورتان تعليلاً لما تضمنته سورة
اقرأ ، لأن أولها ذكر العلم ، وفي أثنائها ذكر المال . فكأنه قيل : إنا لم نزل
المال للطغيان والامتناع والفخر ، بل ليستعان به على تقوانا ، وإقامة الصلاة ،
وإيتاء الزكاة (٣) .

« سورة الزلزلة »

أقول : لما ذكر في آخر (لم يكن) أن جزاء الكافرين جهنم ، وجزاء
للمؤمنين جنات ، فكأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقيل : (إذا زلزلت الأرض
زلزالها) (١) . أى [حين] تكون زلزلة الأرض ، إلى آخره .

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد : ١٤٠/٧ عن أبي واقد الليثي . قال : قال
لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله عز وجل قال : إنا أنزلنا
المال ... الحديث . وعزاه إلى أحمد والطبراني . وقال : رجال أحمد رجال
الصحيح .

(٢) العلم في قوله تعالى : (علم الإنسان ما لم يعلم) . والمال في قوله :
(أن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

هكذا ظهر لي ، ثم لما راجعت تفسير الإمام الرازي ، ورأيت ذكر نحوه حمدت الله كثيراً . وعبارته : ذكروا في مناسبة هذه السورة لما قبلها وجوها منها : أنه تعالى لما قال : (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) « ٨ » . فكأن المكلف قال : ومتى يكون ذلك يارب ؟ فقال : (إذا زلزلت الأرض) .

ومنها : أنه لما ذكر فيها وعيد الكافرين ، ووعد المؤمنين ، أراد أن يزيد في وعيد الكافرين فقال : (إذا زلزلت الأرض) . ونظيره : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) . ثم ذكرما للطائفتين فقال : (فأما الذين اسودت وجوههم) إلى آخره . ثم جمع بينهما هنا في آخر السورة بذكر الذي يعمل الخير والشر . انتهى .

« سورة العاديات »

أقول : لا يخفى ما بين قوله في الزلزلة : (وأخرجت الأرض أثقالها) « ٢ » وقوله في هذه السورة : (إذا بعثر ما في القبور) « ٩ » . من المناسبة والعلاقة ^(١) .

« سورة القارعة »

قال الإمام : لما ختم الله سبحانه السورة السابقة بقوله : (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) « ١١ » . فكأنه قيل : وماذا ؟ فقال : هي القارعة . قال : وتقديره : متأتيتك القارعة على ما أخبرت عنه بقولي : (إذا بعثر ما في القبور) « ٩ » .

(١) أقول : وهناك مناسبة أخرى . هي : بيان الأصل الذي يضل به الإنسان أو يهتدى . فلما ذكر في آخر الزلزلة جزاء الإنسان على الخير والشر . بين هنا أن الإنسان بطبيعته يحب الخير ، وحبه للخير إما للدنيا وهو الشر ، وإما للآخرة وهو حقيقة الخير . فهذا الحب هو الذي يوجه الأعمال . ثم ذكر الإنسان بيوم يكشف فيه عما في القلوب من نوايا خفية : « أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور » إلى آخر السورة . وقد زاد الأمر تفصيلاً في السورة التالية .

« سورة التكاثر »

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها ، كأنه لما قال هناك : (فأمه هاوية) (٩) . قيل : لم ذلك ؟ فقال : لأنكم (ألهاكم التكاثر) (١٠) . فاشتغلتم بدنياكم ، ولا أنتم موازينكم بالحطام ، فحفت موازينكم بالأثام ، ولهذا عقبها بسورة العصر ، المشتبهة على أن الإنسان في خسر ، بيان لخسارة تجارة الدنيا ، وريح تجارة الآخرة ، ولهذا عقبها بسورة الحمزة ، للتوعّد فيها من جمع مالا وعدّده ، يحسب أن ماله أخذه . فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع ، وحسن اتساقها (١) .

« سورة الفيل »

ظهر لى فى وجه اتصالها بعد الفكرة : أنه تعالى لما ذكر حال الحمزة الهزّة ، الذى جمع مالا وعدّه ، وتمرّز بماله وتقوّى ، عقب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل ، الذين كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر أموالا وهتوا ، وقد جعل كيدهم فى تضليل ، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه ، وجعلهم كعصف مأكول ، ولم يغن عنهم مالهم ولا هزم ولا شوكتهم ، ولا فيلهم شيئا .
فمن كان قصارى تعزّزه وتقوّيه بالمال ، وهمز الناس بلسانه ، أقرب إلى الهلاك ، وأدنى إلى الذلة والمهانة .

« سورة قريش »

هى شديدة الاتصال بما قبلها ، لتعلق الجار والمجرور فى أولها بالفعل فى آخر

(١) ومن المناسبة كذلك : التصريح هنا بوزن الاعمال التى أجعلها فى الزلزلة وبين أصلها فى العاديات .

تلك . ولهذا كانتا في مصحف أبي سورة واحدة^(١) .

« سورة الماعون »

أقول : لما ذكر تعالى في سورة قريش : (الذى أطعمهم من جوع) (٤) .
ذكر هنا ذم من لم يُحض على طعام المسكين .

ولما قال هناك : (فليعبدوا رب هذا البيت) (٣) . ذكر هنا من سها
عن صلاته^(٢) .

« سورة الكوثر »

قال الإمام فخر الدين : هي كالمقابلة للتي قبلها ، لأن السابقة وصف الله سبحانه
فيها المنافقين بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة .
وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل : (إنا أعطيناك الكوثر) (١) . أى :
الخير الكثير . وفي مقابلة ترك الصلاة . (فصل^(٣)) (٢) . أى . دُم عليها . وفي
مقابلة الرياء : (لربك) (٢) . أى : لرضاه ، لا للناس . وفي مقابلة منع الماعون :
(وانحر) (٢) . وأراد به : التصدق بلحوم الأضاحى . قال : فاعتبر هذه المناسبة
المعجية .

(١) نقله السيوطى عن السخاوى في كتاب جمال القراء عن جعفر الصادق ، وأبى نعيم .
وقال : ويرداه ما أخرجه الحاكم والطبرانى من حديث أم هانئ أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : فضل الله قريشا بسبع ... وأن الله أنزل
فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم : لا يلاف قريش . ومع ذلك فصلة
قريش بالليل قائمة . فكان ما فعل الله بأصحاب الليل كن لا يلاف قريش ، ولتأبين
طريق تجارتهم في رحلتى الشتاء والصيف . وقد كان من أهداف أبرهة
السياسية حرمان قريش من تجارتهم هذه .

(٢) أقول : إن السورة بكاملها تسير مع الخط الذى يبدأ من سورة الزلزلة كما
قلنا . فهو ترشد الى الطريق السليم لاستعمال المال ، وبذله في عون اليتامى ،
واطعام المساكين ، وذلك عن طريق التحذير من إهمال هذا الطريق ، وتسيئة
ماتع المون مكذبا بالدين .

« سورة الكافرون »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما قال : (فصل لربك) أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون ، وبالغ في ذلك فكرر ، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه .

« سورة النصر »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه قال في آخر ما قبلها : (ولي دين) . فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه ، وسلم من شوائب الكفار والمخالفين ، فعقب ببيان وقت ذلك ، وهو مجيء الفتح والنصر ، فإن الناس حين دخلوا في دين الله أفواجاً ، فقد تم الأمر ، وذهب الكفر ، وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه ، ولذلك كانت السورة إشارة إلى وقته صلى الله عليه وسلم ^(١) .

وقال الإمام فخر الدين : كأنه تعالى يقول : لما أمرتك في السورة المتقدمة بمجاهدة جميع الكفار ، بالتبري منهم ، وإبطال دينهم ، جزيتك هلى ذلك بالنصر والفتح ، وتكثير الأتباع .

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لما أعطاه الكون ، وهو : الخير الكثير ، ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه ، فعقبها بمجاهدة الكفار ، والتبري منهم . فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح ، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه ، وأشار إلى دنو أجله ، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال .

• توقع زوالا إذا قيل تم •

(١) أخرج البخارى هذا المعنى في التفسير : ٢٢٠/٦ ، ٢٢١ . عن ابن عباس .
والإمام أحمد في المسند : ٢١٧/١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦ . وابن جرير في التفسير : ٢١٥/٣٠ .

« سورة تبت »

قال الإمام : وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما قال : (لكم دينكم ولي دين) (٦) . فكأنه قيل : إلهي ، وما جزائي ؟ فقال الله له : النصر والفتح . فقال : وما جزاء عبي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام ؟ فقال : (تبت يدا أبي لهب) (١) ، الآيات . وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر معللاً بقوله : (ولي دين) . ويكون الوعيد راجعاً إلى قوله : (لكم دينكم) . هللى حد قوله : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) .

قال : فتأمل في هذه المجانسة الحافظة بين هذه السور ، مع أن سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة^(١) ، والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة^(٢) ، ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله ، وبأمره .

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لما قال . (لكم دينكم ولي دين) كأنه قيل : يا إلهي ، ما جزاء المطيع ؟ قال : حصول النصر والفتح . فقيل : وما ثواب العاصي ؟ قال : الخسارة في الدنيا ، والمقاب في العقبى ، كما دلت عليه سورة تبت .

« سورة الاخلاص »

قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان في اللفظ بين فواصلها ومقطع سورة تبت . وأقول : ظهر لى هنا غير الوزان في اللفظ : أن هذه السورة متصلة بقل يا أيها الكافرون في المعنى . ولهذا قيل : من أسمائها أيضاً الإخلاص . وقد قالوا : إنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضاً مشتملة عليه . ولهذا قرن بينهما في

(١) أخرجه مسلم عن ابن عباس : ٢٤٢/٨ ، ٢٤٣ . وفيها أنها آخر سورة نزلت .

(٢) الانتقان : ٩٦/١ .

القراءة في الفجر ، والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصبح للمسافر ، ومغرب ليلة الجمعة^(١) .

وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون ، صرح هنا بلازم ذلك ، وهو أن معبوده أحد ، وأقام الدليل عليه بأنه صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك ، وليس في معبوداتهم ما هو كذلك .

وإنما فصل بين النظيرتين بالسورتين^(٢) لما تقدم من الحكمة ، وكأن إيلاعها سورة ثبت ورد عليه بخصوصه .

« سورة الفلق والناس »

أقول : هاتان السورتان نزلتا معاً ، كما في الدلائل البهينة . فلذلك قرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أهوذ ، وغقب بهما . سورة الإخلاص ، لأن الثلاثة سميت في الحديث بالمعوذات ، وبالقوافل^(٣) .

وقد مت الفلق على الناس — وإن كانت أقصر منها — لمناسبة مقطعها

(١) أخرج الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عمر : ١٢٠/٢ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر سئرا بالكافرين والإخلاص . وأخرج ابن حجر في المطالب العسالية : ٢٩٩/٢ عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول بضمها وعشرين مرة : « نعم السورتان يقرأ في الركعتين : الإحد الصمد ، وقل يا أيها الكافرون » وأخرج عن أبي يعلى من حديث جبير بن مطعم أنه صلى الله عليه وسلم أمره أن يقرأ : الكافرون ، والنصر ، والإخلاص ، والمعوذتين (المصدر السابق : ٢٩٨/٣) .

(٢) يعني بين (الكافرين والإخلاص) بالنصر وثبت .

(٣) الذي عرفت عليه حديث عبد الله بن خبيب عن أبيه قال : أصابنا طش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فآخذ بيدي فقال : « قل . فسكت . فقال : قل . فقلت : ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تسي وحين تصبح ثلاثاً تكك ، كل يوم مرتين » (مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٥) وأبو داود في الأدب ما يقول إذا أصبح : ١٧٦/٢ والنسائي في الاستعاذة : ٢٥٠/٨ . والترمذي في الدعوات : ٢٤٧/٦ وحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بهن كل ليلة ثلاث مرات (البخاري في فضائل القرآن : ٢٢٢/٦) . ونقل السيوطي عن السخاوي قوله : « وقوارع القرآن الآيات التي يتعوذ بها ويتحصن ، سميت بذلك لأنها تفرع الشيطان وتقمعه كآية الكرسي والمعوذتين » . الاثنان : ٢٠١/١ . أما كلمة (القوافل) التي ذكرها المؤلف فلم نعرف عليها في الحديث النبوي ومصادره .

في الوزن لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت^(١) .

وهذا آخر ما من الله به على من استخراج مناسبات ترتيب السور ، وكله من مستنبطاتي ، ولم أعتد فيه على شيء لغيري إلا التزير اليسير الذي صرحت بعزوي له ، فله الحمد على ما ألهم ، والشكر على ما من به وأنعم ، سبحانه لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

ثم رأيت الإمام فخر الدين ذكر في تفسيره كلاما لطيفا في مناسبات هذه السور ، فقال في سورة الكوثر :

اعلم أن هذه السورة كاللثمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها .

أما الأول ، فلأنه تعالى جعل سورة الضحى في مدح النبي ﷺ ، وتفصيل أحواله ، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته . (ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . وسوف يعطيك ربك فترضى) (٣ - ٥) . ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا : (ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى) (٦ - ٨) .

ثم ذكر في سورة « ألم نشرح » أنه شرفه بثلاثة أشياء : شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر .

ثم شرفه في سورة التين بثلاثة أشياء أنواع : أقسم ببلده ، وأخبر بخلاص أمته من الناس بقوله : (إلا الذين آمنوا) (٦) . ووصلهم إلى الثواب بقوله : (فلهم أجر غير ممنون) (٦) .

وشرفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع : (اقرأ باسم ربك) . وقهر خصمه

(١) مقطع الفلق (حسد) مناسب لفواصل الإخلاص (أحد . الصبد . أحد) ومقطع تبت (مسد) وكلها متفقة في الوزن .

بقوله : (فليدع نادية . مستدع الزبانية) (١٨) . وتخصيصه بالقرب في قوله :
(وامجد واقترب) (١٩) .

وشرفه في سورة القدر ببليلة القدر ، وفيها ثلاثة أنواع من الفضيلة : كونها
خيراً من ألف شهر ، وتنزل الملائكة والروح فيها ، وكونها سلاماً حتى
مطلع الفجر .

وشرفه في (لم يكن) بثلاثة أشياء : أنهم خير البرية ، وجزاؤهم جنات ،
ورضى عنهم .

وشرفه في الزلزلة بثلاثة أنواع : إخبار الأرض بطاعة أمته ، ورؤيتهم
أعالمهم ، ووصولهم إلى ثوابها حتى وزن الذرة .

وشرفه في العاديات بإقسامه بخيل الغزاة من أمته ، ووصفها بثلاث صفات .
وشرفه في القارعة بثقل موازين أمته ، وكونهم في عيشة راضية ، ورؤيتهم
أعداءهم في نار حامية .

وفي أهاكم التكاثر ، هدد المعرضين عن دينه بثلاثة : يرون الجحيم ، ثم
يرونها عين اليقين ، ويسألون عن النعيم .

وشرفه في سورة العصر بمدح أمته بثلاث : الإيمان ، والعمل الصالح ،
وإرشاد الخلق إليه ، وهو : التواصي بالحق والصبر .

وشرفه في سورة الهمة بوعيد عدوه بثلاثة أشياء : ألا ينتفع بدنياء ،
ويعذبه في الحطمة ، ويطلق عليه .

وشرفه في سورة الفيل بأن رد كيد عدوه بثلاث : بأن جعله في تضليل ،
وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعلهم كعصف ما كول .

وشرفه في سورة قريش بثلاث : تألف قومه ، وإطعامهم ، وأمنهم .

وشرفه في الماعون بنم هده ثلاث : الداعة ، واللؤم في قوله . (فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين) (٢ ، ٣) . وترك تعظيم الخالق في قوله : (فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراعون) (٤ - ٦) . وترك نفع الخلق في قوله : (ويمنعون الماعون) (٦) .

فلما شرفه في هذه السور بهذه الوجوه العظيمة قال : (إنا أعطيناك الكوثر) . أى : هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة في هذه السور ، التى كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بخلافها ، فاشتغل أنت بعبادة ربك ، إما بالنفس ، وهو قوله . (فصل لربك) وإما بالمال ، وهو قوله . (وأنحر) . وإما بإرشاد العباد إلى الأصلىح ، وهو قوله : (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) . الآيات . فثبت أن هذه السورة كالتممة لما قبلها .

وأما كونها كالأصل لما بعدها فهو : أنه تعالى يأمره بعد هذه أن يكف عن أهل الدنيا جميعاً بقوله : (قل يا أيها الكافرون) . إلى آخر السورة . ويبطل أذاهم ، وذلك يقتضى نصرهم على أعدائهم ، لأن الطعن على الإنسان فى دينه أشد عليه من الطعن فى نفسه وزوجه ، وذلك مما يجبن عنه كل أحد من الخلق ، فإن موسى وهارون أرسلوا إلى فرعون واحد فقالا : (إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) (٢٠ : ٤٥) . ومحمد ﷺ مرسل إلى الخلق جميعاً ، فكان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه . فدبر الله فى إزالة الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، بأن قدم هذه السورة ، وأخبر فيها بإعطائه الخير الكثير ، ومن جلته أيضاً : الرئاسة ، ومفاتيح الدنيا ، فلا يلتفت إلى ما بأيديهم من زهرة الدنيا ، وذلك أدعى إلى مجاهدتهم بالمداوة ، والصدع بالحق ، لعدم تطلعه إلى ما بأيديهم ثم ذكر بعد سورة الكافرين سورة النصر ، فكأنه تعالى يقول : وعدتك

بالخير الكثير ، وإتمام أمرك ، وأمرتك بإبطال أديانهم ، والبراعة من
معبوداتهم ، فلما امتثلت أمرى أنجزت لك الوعد بالفتح والنصر ، وكثرة
الأتباع ، بدخول الناس في دين الله أفواجا .

ولما تم أمر الدعوة والشرعية ، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن
وذلك أن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، فليس له إلا
الذل والخسارة والهوان ، والمصير إلى النار ، وهو المراد من سورة تبت . وإما
أن يكون طالباً للآخرة ، فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنعش فيها
صور الموجودات .

وقد ثبت أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من قال :
أعرف الصانع ، ثم أتوسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق
الأشرف ، ومنهم من عكس^(١) ، وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه المكرم بتلك الطريقة التي هي أشرف . فبدأ
بذكر صفات الله ، وشرح جلاله ، في سورة الإخلاص . ثم أتبعه بذكر مراتب
مخلوقاته في الفلق ، ثم ختم بذكر مراتب النفس الإنسانية في الناس ، وعند ذلك
ختم الكتاب . فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة
في كتابه المكرم . هذا كلام الإمام .

ثم قال في سورة الفلق : سمعت بعض العارفين يقول : لما شرح الله سبحانه

(١) طريق الجمهور يترتب عليه : أن تكون المخلوقات دليلاً على وجود الخالق . وطريق
الخاصة يترتب عليه أن يكون الله دليلاً على وجود خلقه . الأول معرفة صعودية ،
والثاني معرفة نزولية .

أمر الإلهية في سورة الإخلاص ، ذكر هاتين السورتين عقبها في شرح مراتب الخلق على ما قال : (ألا له الخلق والأمر) .

فعالم الأمر كله خيرات محضة ، بريئة عن الشرور والآفات ، أما عالم الخلق فهو الأجسام الكثيفة ، والجبنات . فلا جرم قال في المطلع : (قل أعوذ برب الفلق ! من شر ما خلق) (١ ، ٢) .

ثم الأجسام إما أبدية ، وكلها خيرات محضة ، لأنها بريئة عن الاختلافات والفتور ، على ما قال : (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) (٦٧ : ٣) . وإما عنصرية ، وهي إما جهادات ، فهي خالية عن جميع القوى النفسانية ، فالظلمات فيها خالصة ، والأنوار عنها زائلة ، وهو المراد من قوله : (ومن شر غاسق إذا وقب) (١١٣ : ٣) . وإما نبات ، والقوة العادلة هي التي تزيد في الطول والعمق معاً ، فهذه القوة النباتية كأنها تنفث في العقدة . وإما حيوان ، وهو محل القوى التي تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله ، وهو المراد بقوله : (ومن شر حاسد إذا حسد) .

ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المراتبة سوى النفس الإنسانية ، وهي المستفيدة ، فلا يكون مستفاداً منها ، فلا جرم قطع هذه السورة ، وذكر بعدها في سورة الناس مراتب ودرجات النفس الإنسانية . انتهى .

ولم يبين للمراتب المشار إليها . وقد بينها ابن الزمكاني في أسرار^(١) فقال : إضافة (رب) إلى (الناس) تؤخذ بأن المراد بالناس : الأطفال ، لأن الرب من : رَبِّهِ يَرْبُهُ ، وهم إلى التربية أحوج . وإضافة (ملك) إلى (الناس) .

(١) هو كتاب : « نهاية التاميل في أسرار التنزيل » خط (٤٧١) تفسير تيمور يدار الكتب المصرية .

تؤذن بإرادة الشباب به ، إذ لفظ (مالك) يؤذن بالسياسة والعزة ، والشبان إليها أحوج . وإضافة (إله) إلى (الناس) تؤذن بأن المراد به الشيوخ ، لأن ذاته مستحقة للطاعة والعبادة ، وهم أقرب . وقوله : (يوسوس في صدور الناس) يؤذن بأن المراد بالناس : العلماء والعباد ، لأن الوسوسة غالباً عن الشبهة . وقوله : (من الجنة والناس) يؤذن بأن المراد بالناس : الأشرار . وهم شياطين الإنس الذين يوسوسون لهم . والله تعالى أعلم^(١) .

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه

قال مؤلفه نفعنا الله ببركاته ، وأمدنا من نفعاته : فرغت من تأليفه يوم الأحد ، الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) ذكر تاج القراء الكرمانى هذه المعانى مختصرة فى أسرار التكرار فى القرآن : ٢١٥ ولم ينسبها الى أحد ولم بشر ابن الزملكاني الى الكرمانى رغم تأخره عنه .

مصادر التحقیق

مصادر التحقيق

- ١ - القرآن الكريم •
- ٢ - الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى •
- ٣ - ارشاد الرحمن فى الناسخ والمنسوخ والمتشابه وأسباب النزول
وتجويد القرآن للأجهودى (خط) الأزهرية بمصر •
- ٤ - أسرار التكرار فى القرآن لتاج القراء الكرمانى •
- ٥ - الأمد الأقصى لأبى زيد الدبوسى (خط) دار الكتب المصرية •
- ٦ - البدر الطالع للشوكانى •
- ٧ - بغية الوعاة فى طبقات النحاة للسيوطى •
- ٨ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير •
- ٩ - تفسير البيضاوى •
- ١٠ - التكملة لابن الأبار •
- ١١ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى •
- ١٢ - جامع البيان لابن جرير الطبرى •
- ١٣ - حقائق التفسير لأبى عبد الرحمن السلمى (خط) دار الكتب
المصرية •
- ١٤ - خواص القرآن الكريم لأبى حامد الغزالى •
- ١٥ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى •
- ١٦ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى •
- ١٧ - سنن أبى داود •
- ١٨ - سنن الترمذى •
- ١٩ - سنن النسائى •
- ٢٠ - سنن الدارمى •
- ٢١ - سنن ابن ماجه •

- ٢٢ - سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام .
- ٢٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد .
- ٢٤ - شعب الايمان للبيهقى .
- ٢٥ - شرح الكشف للطيبى (خط) الأزهرية بمصر .
- ٢٦ - صحيح البخارى .
- ٢٧ - صحيح مسلم .
- ٢٨ - الضعفاء والوضعاون لابن الجوزى (خط) الأزهرية .
- ٢٩ - الضعفاء لشمس الدين الذهبى .
- ٣٠ - طبقات القراء للجزرى .
- ٣١ - العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية لابن الجوزى (خط) الأزهرية بمصر .
- ٣٢ - الكشف عز حقائق التنزيل للزمخشري .
- ٣٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمى .
- ٣٤ - ميزان الاعتدال للذهبي .
- ٣٥ - المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابورى .
- ٣٦ - مسند الامام أحمد بن حنبل .
- ٣٧ - المطالب العالية فى زوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلانى .
- ٣٨ - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى .
- ٣٩ - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى (خط) الأزهرية بمصر .
- ٤٠ - نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى .
- ٤١ - وفيات الأعيان لابن خلكان .

فهرس
الحديث النبوی والآثار

فهرس الحديث النبوى والآثار

الصفحة	الحديث
٩٦	١ - آخر ما نزل من القرآن المائدة
١٥٩	٢ - اشارة سورة النصر الى وفاته صلى الله عليه وسلم
٧٠	٣ - أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ٠٠ الحديث
١٤٩	٤ - أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ بالسموات في العشاء
١٥٥	٥ - انا أنزلنا المال لاقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ٠٠ الحديث
٧٠	٦ - انهن من العتاق الأول ، وهن من تلادى
١٠٠	٧ - الأنعام شيعها سبعون ألف ملك
١٠٠	٨ - البقرة سنام القرآن وذروته
٨٢	٩ - البقرة فسقاط القرآن
٨٣	١٠ - التامين في آخر البقرة
١٢٥	١١ - تفسير لهر الحديث بالفناء والملاهى
١١٣	١٢ - التوراة في خمس عشرة آية من سورة بنى اسرائيل
١١٢	١٣ - الجبار الذى أراد أن يصعد السماء بالنسور
١٢٣	١٤ - خاتمة القصص اشارة الى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم
٩٠	١٥ - خلاف الصحابة فيمن رجع من المنافقين يوم أحد
١٠٥	١٦ - الرعد اسم ملك
١٣٦	١٧ - سبحان الذى وسع سمعه الأصوات
١٣٦	١٨ - سبب نزول آخر سورة المجادلة
١٣٦	١٩ - سبب نزول أول سورة الحشر
٧٣	٢٠ - سورة الحفد والحلع

- ٢١ - سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة ١٦٠
- ٢٢ - الصراط المستقيم كتاب الله ٧٧
- ٢٣ - صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبع الطوال فى ركعة ٧٠
- ٢٤ - طرأ على حزبي من القرآن ٧٠
- ٢٥ - افتقر ربك فسأل ربه القرض ٨٨
- ٢٦ - قال اليهود : أوتينا علما كثيرا ٠٠ الحديث ١١٥
- ٢٨ - اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ٧٠ ، ٩٣
- ٢٩ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع المفصل فى ركعة ٧٠
- ٣٠ - لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ٠٠ الحديث ١٠١
- ٣١ - ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهى من المثاني ٠٠ الحديث ١٠٣
- ٣٢ - من سره أن ينظر الى القيامة كأنه رأى عين ٠٠ الحديث ١٤٧
- ٣٣ - نزول طه بعد مريم بعد الكهف ١١٦
- ٣٤ - نزول الشعراء ثم طه ثم القصص ١١٧
- ٣٥ - نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ١١٧
- ٣٦ - النجاشي وأصحابه من مؤمنى أهل الكتاب ٨٢
- ٣٧ - وفد نجران ٨٢
- ٣٨ - اليقين مفسر بالموت ١١١
- ٣٩ - يوم حمراء الأسد ٩٠
- ٤٠ - يونس نزلت بعد هود ثم يوسف ١٠٩

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة الأنبياء	١١٧	الإهداء	
سورة الحج	١١٧	الدراسة	
سورة المؤمنون	١١٨	عظمة القرآن ووحدته	
سورة النور	١١٨	الموضوعية	
سورة الفرقان	١١٩	ترتيب القرآن	
سورة الشعراء	١٢٠	الإمام السيوطي وكتابه	
سورة النمل	١٢١	مقدمة المؤلف	٦٥
سورة القصص	١٢٢	مقدمة في ترتيب السور	٦٨
سورة العنكبوت	١٢٣	سورة الفاتحة	٧٣
سورة لقمان	١٢٥	سورة البقرة	٧٦
سورة السجدة	١٢٥	سورة آل عمران	٨٣
سورة الأحزاب	١٢٦	سورة النساء	٨٨
سورة سبأ	١٢٦	سورة المائدة	٩٣
سورة فاطر	١٢٧	سورة الأنعام	٩٧
سورة يس	١٢٧	سورة الأعراف	١٠١
سورة الصافات	١٢٨	سورة الأنفال	١٠٣
سورة ص	١٢٨	سورة براءة	١٠٧
سورة الزمر	١٢٨	سورة يونس	١٠٧
سورة غافر	١٢٩	سورة هود	١٠٨
سورة القتال	١٣١	سورة يوسف	١٠٩
سورة الفتح	١٣١	سورة الرعد	١٠٩
سورة الحجرات	١٣٢	سورة إبراهيم	١١٠
سورة الذاريات	١٣٢	سورة الحجر	١١١
سورة الطور	١٣٢	سورة النحل	١١١
سورة النجم	١٣٣	سورة بني إسرائيل	١١٣
سورة القمر	١٣٣	سورة الكهف	١١٣
سورة الرحمن	١٣٤	سورة مريم	١١٥
		سورة طه	١١٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة الانشقاق	١٤٩	سورة الواقعة	١٣٤
سورة البروج والطارق	١٤٩	سورة الحديد	١٣٥
سورة الأعلى	١٤٩	سورة المجادلة	١٣٦
سورة الفاشية	١٤٩	سورة الحشر	١٣٦
سورة الفجر	١٥٠	سورة الممتحنة	١٣٧
سورة البلد	١٥١	سورة الصف	١٣٧
سورة الشمس والليل	١٥١	سورة الجمعة	١٣٧
والضحى		سورة المنافقون	١٣٨
سورة ألم نشرح	١٥٢	سورة التغابن	١٣٩
سورة التين	١٥٣	سورة الطلاق	١٤٠
سورة العلق	١٥٤	سورة التحريم	١٤٠
سورة القدر	١٥٤	سورة تبارك	١٤١
سورة لم يكن	١٥٥	سورة ن	١٤١
سورة الزلزلة	١٥٥	سورة الحاقة	١٤٢
سورة العاديات	١٥٦	سورة سأل	١٤٢
سورة القارعة	١٥٦	سورة نوح	١٤٢
سورة التكاثر	١٥٧	سورة الجن	١٤٣
سورة الفيل	١٥٧	سورة المزمل	١٤٣
سورة قريش	١٥٧	سورة المدثر	١٤٣
سورة الماعون	١٥٨	سورة القيامة	١٤٤
سورة الكوثر	١٥٨	سورة الانسان	١٤٤
سورة الكافرون	١٥٩	سورة المرسلات	١٤٥
سورة النصر	١٥٩	سورة عم	١٤٦
سورة تبت	١٦٠	سورة عبس	١٤٦
سورة الاخلاص	١٦٠	سورة التكويد	١٤٦
سورة الفلق والناس	١٦١	سورة الانفطار	١٤٧
		سورة المطففين	١٤٧

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٦/٤١٣٢
٨ - ٠٨ - ٧٠٥٣ - ٩٧٧



تليختر ٥٥٤٤١٠